المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

لورا لونج

ديليسبس

وقناة السويس

عبقرية الإنسان والتاريخ



ترجمة: محمد فريد حجاب

تقديم: حسين عيد

1437

تتسم الشخصيات التاريخية بسمات ذات أبعاد متنوعة وتتعدد الرؤى بحسب زواياها المتعددة، حيث تعكس كلٌ زاوية منها جانبًا من جوانب الشخصية المتفردة. ويترتب على ذلك قدر كبير من المشقة فى استيفاء هذه الشخصية حقها من الدراسة، فى الوقت الذى تغدو فيه مثل هذه الدراسة أمرًا حيويًا للتعرف على خصائصها القيادية من حيث منهج التفكير وأنماط السلوك وطبيعة الدوافع والقيم الكامنة فى أعماق الشخصية التاريخية. وهذا ما دفع للقيام بترجمة هذا الكتاب التاريخى الأدبى حول ديليسبس، الذى فكر وخطط لحفر قناة السويس فكان هذا العمل دليلاً قاطعًا على عبقرية الإنسان والتاريخ.

تصميم الغلاف عمرو الكفراوى

ديليسبس وقناة السويس

عبقرية الإنسان والتاريخ

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1437
- ديليسبس وقناة السويس: عبقرية الإنسان والتاريخ
- لورا لونج
- محمد فريد حجاب
- حسين عيد
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب:

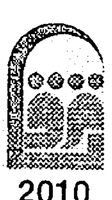
De Lesseps
Builder of Suez
By Laura Long

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

ديليسبس وقناة السويس
عبقرية الإنسان والتاريخ

تأليف : لورا لونج
ترجمة : محمد فريد حجاب
تقديم : حسين عيد



2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

لونج ، لورا .
ديليسبس وقناة السويس: عبقرية الإنسان والتاريخ .
تأليف: لورا لونج؛ ترجمة: محمد فريد حجاب؛ تقديم: حسين عيد.
ط١- القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٠
١٦٨ ص ؛ ٢٤ سم.
١- المهندسون الفرنسيون .
٢- قناة السويس - تاريخ .
٣- ديليسبس ، فرديناند مارى (١٨٠٥-١٨٩٤).
أ- حجاب ، محمد فريد (مترجم).
ب- عيد ، حسين (مقدم). ٩٢٦,٢

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٢٢٣٥١
الترقيم الدولي 9 - 717 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

رقم الصفحة

- تقديم : حسين عيد 7
- مقدمة المترجم 11
- الفصل الأول : الميلاد والطفولة المبكرة 15
- الفصل الثانى : نقطة تحول 21
- الفصل الثالث : التأهيل المبكر 29
- الفصل الرابع : مفارقات غريبة 37
- الفصل الخامس : مع محمد على 43
- الفصل السادس : بين الحب والحرب 51
- الفصل السابع : مرحلة حرجة 57
- الفصل الثامن : قنوط وأمل 65
- الفصل التاسع : الصدفة لمن يستحق 73
- الفصل العاشر : أول الغيث قطرة 79
- الفصل الحادى عشر : تفاؤل حذر 91
- الفصل الثانى عشر : ألاعيب السياسة 101
- الفصل الثالث عشر : بين التشكيك والتأييد 107

رقم الصفحة

- الفصل الرابع عشر : الأدلة الدامغة 115
- الفصل الخامس عشر : الوالى يدخل التاريخ 119
- الفصل السادس عشر : الافتتاح الكبير 129
- الفصل السابع عشر : تصاريف القدر 139
- الفصل الثامن عشر : رهين المدفنين 149
- الهوامش 155
- أهم المراجع 163
- ملحق: حكام مصر من أسرة محمد على 164

تقديم

بقلم: حسين عيد

تثير قراءة هذا الكتاب عدداً من الأسئلة ، منها :

ما الذى حفز الأمريكية لورا لونج إلى كتابة هذا الكتاب عن الفرنسى ديليسبس ؟

لماذا تركزت كل أضواء الكتاب على شخصية واحدة بذاتها ، وهى تتبعها منذ مولدها إلى موتها ؟

هل يعتبر هذا الكتاب بحثًا تاريخيًا أم نصًا روائيًا ؟

تلك أسئلة إشكالية يصعب إيجاد إجابة صريحة عنها ، لكن يظل هناك دائما شرف المحاولة قائمًا ومشجعًا على المضى فى طريق البحث عن إجابات شافية .

لا شك أنه أمر مدهش أن تقدم الأمريكية لورا لونج على وضع كتاب عن شخصية فرديناند ديليسبس (1805- 1894) ، ولعل جانبًا من تكوينه استأثر باهتمامها ، قد يكون ذلك الإيمان المعجز لفرد فرنسى فى الغرب بحلم معين يتحقق فى الشرق ، هو تنفيذ قناة تربط بين الشرق والغرب ، والسعى الدءوب نحو تحقيق ذلك الحلم مهما اعترض طريقه من مشاق ومصاعب ، حتى دانت له الأمور فى النهاية ، وكللت جهوده بالنجاح ، وربما رجعت من أجل تحقيق هذا الغرض إلى المراجع التاريخية التى تناولت حياته منذ المولد حتى الوفاة ، معايشة فى ذات الوقت مختلف الشخصيات التى واكبت رحلة حياته الطويلة التى قاربت التسعين عامًا .

هكذا حكم الكاتبة منذ البداية منظور تناولها الخاص ، فجاء عالم الكتاب منظوراً إليه فى الغالب الأعم من خلال شخصية ديليسبس المتفردة ، عالم علوى طبقى محدود ، هو عالم عائلته الخاصة أو ما يدور فى فلكها من دهاليز عالم الدبلوماسية ، حيث عمل أو بعض مناطق الحكم التى اقترب منها بحكم عمله أو سفراته فى الغرب أو الشرق ، وهكذا لم تنفتح الكاتبة على التاريخ باتساع رقعته ، ولم تهبط من علياء عالم تلك الشخصية المستأثرة بها ، إلى الطبقة الدنيا فى مصر ، إلى عالم آلاف المطحونين من المواطنين العاديين الذين أجبروا على العمل كسخرة فى شق قناة السويس .

هنا ، حدث ذلك التداخل بين التاريخ والنص الروائى ، إذ طالما اعتمدت الرواية على التاريخ عبر عمرها الطويل مستمدة من أحداثه مادة لها ، وهو ما أطلق عليه النقاد الرواية التاريخية ، وهو ما تجلى فى هذا الكتاب حين اعتمدت حبكته فى جانب كبير منها على شخصية بطل روائى يطارد حلمه بشكل مستمر لا يعرف هوادة أو كللاً ، وكانت الكاتبة تغوص فى ذات الوقت بين أعماق التاريخ فى محاولة لتدعيم وجود هذا البطل ، بينما تعرض الأحداث التاريخية من جانب آخر بشكل مطرد بديع ، وان كانت لم تحسم أمرها فى قضية هل صنع التاريخ من فرديناند ديليسبس بطلاً أسطوريًا ، أم كانت شخصية فرديناند هى التى أثرت فى أحداث التاريخ صانعة منه تلك الأسطورة ؟ ، ومن ناحية أخرى كانت ترجمة الدكتور / فريد حجاب للكتاب سلسة طيعة ، كما كان موفقًا غاية التوفيق حين وضع لفصول الكتاب المرقمة عناوين تكاد تدعم التوجه الروائى للكتاب ، وإن كانت لا تنزع عنه خصوصيته ككتاب جرى تأليفه أساسًا فى التاريخ .

"الفضيلة هى المعرفة"

سقراط

مقدمة المترجم

هل من الممكن أن يوجد طريق للنجاح وسط الفشل ؟ لقد ترعرع فرديناند ديليسبس فى حياة أسرية متذبذبة بين الصعود والهبوط، وفى ظروف من المعاناة القاسية. لقد تبع والده أثناء تنقلاته فى العمل من أجل فرنسا الوطن المحبوب، يتعرف على الناس والأماكن ، ويجد طريقه للنجاح وسط الفشل ، وهو الأمر الذى كان يمكن أن يحطم إنسانًا عاديا. استغل فرديناند الدروس التى استخلصها من تجاربه السابقة فى تحقيق إنجازه العظيم.

كان فرديناند قد تلقى تعليمًا جيدًا من خلال المنحة التى قدمها له نابليون بناء على طلب من والده ثم عمل تحت إشراف كل من والده وعمه. وفى عمله القنصلى بعد ذلك أمضى سنوات ممتعة فى مصر، وتزوج زواجًا سعيدًا، وخدم بتألق فى مناصب عدة. ثم لعبت السياسة دورها وضرب ضربة شخصية مؤسفة، وكان له أصدقاء كثيرون فى الخارج. ولكن رجلاً واحدًا منهم ينبغى أن يذكر. فقبل سنوات، انجذب فرديناند نحو ولد صغير. وهذا الولد أصبح فيما بعد الوالى فى مصر، محمد سعيد باشا الذى حكم فيما بين ١٨٥٤، ١٨٦٣ والذى دعا ديليسبس للحضور إلى مصر عام ١٨٥٤ , وقد ذهل ديليسبس بالاستقبال الذى تلقاه منه ، وكان متلهفًا لأن يعرف هل مازال سعيد يتذكر القناة القديمة التى اكتشفها. وكان لدى فرديناند خطة محددة، وتذكر سعيد مرة أخرى. وقد أمضيا سنوات فى الإعداد لتحقيق هدفهما ، ليس بسبب قلة المهارات الهندسية، وليس بسبب قوة العمل المطلوبة، وحتى ليس بسبب المال، ولكن بسبب الغيرة بين الدول.

وتم إنشاء القناة بالفعل بفضل الصداقة بين الرجلين. وفى الافتتاح الكبير للقناة ، الذى حضره عدد من العظماء فى العالم، كان أحد الرجلين غائبًا، وهو الرجل الذى كان ينبغى أن يشارك مع الآخرين فى هذا اليوم. ولكن كان سعيد قد مات قبل فترة طويلة من اكتمال القناة.

وكانت هناك أحلام أخرى تداعب فرديناند وتستهويه، ولكن أعظم إنجازاته كان تحقيق حلمه الذى شارك فيه صديقه سعيد، وهو بناء قناة السويس كوسيلة للسلام.

كتبت هذه الفقرات على الغلاف الخارجى للكتاب المترجم. وأود الإشارة إلى أننى أقدمت على ترجمته لأن مؤلفته استخدمت منهجًا يجمع بين الأسلوب الروائى الممتع والسرد التاريخى لملحمة من أعظم ملاحم التاريخ فى العصر الحديث، ألا وهى ملحمة إنشاء قناة السويس. وأؤكد أننى لا أتبنى موقف الدفاع عن ، ولا موقف الهجوم على، فرديناند ديليسبس والدور الذى لعبه وسط المؤامرات والصراعات السياسية التى كانت تدور فى تلك الفترة، والتى كان أبطالها كلاً من بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا القيصرية والإمبراطورية العثمانية. وكانت مصر ومشروع قناة السويس من أهم المحاور التى دارت حولها هذه الصراعات والمؤامرات.

وهناك الكثير من الكتابات والدراسات والبحوث حول الدور الذى لعبه ديليسبس وشركة قناة السويس فى أحداث النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى مصر، وتثار فى هذا الصدد قضايا إشكالية كثيرة بشأن مشروع القناة فى حد ذاته والدور الذى يمكن أن تلعبه القناة – إذا ما شقت – فى تأجيج الصراعات والحروب، أو فى خدمة السلام والتجارة العالمية.

وكانت هناك محاولات للتشكيك فى المشروع – وفى نوايا ديليسبس وفرنسا – من جانب بريطانيا. كما كانت هناك محاولات للتأييد والمساندة من جانب فرنسا، وتبنت الإمبراطورية العثمانية موقفًا مماثلاً للبريطانيين. أما فى مصر ، فقد وقف

سعيد باشا، ومن بعده إسماعيل باشا، يدافعان عن مشروع القناة ولكن بحذر. بيد أن جميع القوى المتصارعة والمتنافسة فى آخر الأمر كانت تريد أن تضمن أن تكون قناة السويس عالمية محايدة ، وممرًا عالميا مفتوحًا أمام جميع دول العالم على قدم المساواة. ونجح ديليسبس فى بناء قناة السويس وسط هذه المواقف المختلفة والمتباينة.

ولعل من أبرز الإشكاليات التى أثارها المؤرخون المصريون بصفة خاصة هى تلك المتعلقة بالامتيازات التى منحت لديليسبس وشركته لبناء القناة. بعض هذه الإشكاليات يتعلق بمنح الشركة مساحات شاسعة من الأراضى بلا مقابل، وبعضها الآخر يتعلق بظروف العمل فى شق القناة، وما ارتبط بها من السخرة التى فرضت على أبناء مصر للعمل فى القناة، والظروف المعيشية والصحية القاسية التى عملوا فى ظلها.

كما أن هناك إشكاليات أخرى بصدد الديون التى أثقلت كاهل مصر بسبب هذا المشروع. وكان ختام هذه الإشكاليات دخول القوات البريطانية مصر وإقامة محمية بريطانية فيها، وما أثير من تساؤلات واتهامات حول دور ديليسبس وشركة قناة السويس فى هذا الشأن. ولكن هل من الإنصاف أن نحمل الرجل ما لا يطيق؟ وهل يقلل ذلك من إنجازه العظيم؟ (ألم يئن للذين أصيبوا بعقدة النقص أن يعترفوا بفضل الآخرين علينا؟ وإلى متى نظل نحمِّل الآخرين تبعات ضعفنا؟).

كما أن هناك العديد من القضايا التى تستحق الدراسة والمناقشة فى هذا الكتاب حول ديليسبس وقناة السويس لعل أهمها:

١- قضية السخرة فى شق قناة السويس، وعدد العاملين المصريين الذين تعرضوا للسخرة، حيث يصل عددهم فى بعض المصادر إلى حوالى ٥٦ ألف رجل. ومن الذى ألغى نظام السخرة، هل هو محمد سعيد باشا، أم هو إسماعيل باشا؟

وعلى الأرجح فإنها ألغيت في عهد إسماعيل عام ١٨٦٤، حيث أعلن عندما تولى العرش عن عزمه تأييد مشروع القناة وإلغاء السخرة واسترجاع الأراضي التي أعطيت مجانًا لشركة قناة السويس.

٢- تكاليف مصر في مشروع قناة السويس، حيث تصل في بعض المصادر إلى أكثر من ١٦ مليون جنيه مصري.

٣- موقف ديليسبس من ثورة أحمد عرابي، حيث يذهب البعض إلى القول بأنه كان يهتم في المقام الأول بالحفاظ على حياد القناة، حيث كانت فرنسا منشغلة آنذاك بمشاكلها الداخلية والشمال الأفريقي (استعمار تونس عام ١٨٨١ وقبلها الجزائر عام ١٨٣١، علامة على رغبة فرنسا آنذاك في مهادنة بريطانيا).

٤- عدد المدعوين في احتفال افتتاح قناة السويس، حيث وصلت بعض المصادر بهذا العدد إلى حوالي ١٠٠ ألف على الأقل من الأجانب والمصريين، على الرغم من أن المؤلفة ذكرت العدد على أنه ٦ آلاف شخص فقط.

وبغض النظر عن كل هذه الاعتبارات - التي نترك أمرها للباحثين والمؤرخين - فإن الكتاب يستحق أن يكون في متناول القارئ العربي، لأنه يدور بإيجاز شديد حول ما يمكن أن أسميه "عبقرية الإنسان والتاريخ"

محمد فريد حجاب

الفصل الأول

الميلاد والطفولة المبكرة

أقبلت مربية البيت الفرنسية اللطيفة وهى تجرى مسرعة، وعقبا قدميها يصطكان بالأحجار الموجودة فى ممر الحديقة، وقد أشرق وجهها من فرط السعادة والسرور.

" لقد جاء طفل جميل يا سيدى" صيحة أطلقتها نحو الرجل الذى كان يمشى بلا هدف فى الحديقة المبللة قليلاً.

ابتسم القنصل الفرنسى سعيداً وأجاب " طفل ! ليس لدى فرنسا أبناء كثيرون". وقال ذلك وهو يجرى نحو البيت، وصعد درجات السلم متجهاً نحو غرفة نوم زوجته.

لقد كان القنصل مغتبطًا لأن هذا الولد الجديد ، سعيد الحظ ، يولد تحت نجمة نابليون البراقة. كان ماثيو ديليسبس.[1] ، صديقًا لنابليون.[2] ، وقد وهب حياته لخدمته فى وزارة الخارجية الفرنسية. وفى رحلة عمله الأخيرة فى مصر، وهى الرحلة التى عاد منها للتو إلى فرنسا لكى يولد ابنه على أرض فرنسية، قدم ماثيو ديليسبس توصية لنابليون. سيقدّر أن يكون لها شأن كبير فى مصر هذا المولود الجديد. ولن يعيش ماثيو حتى يشهد ذلك بنفسه، ولكن الطفل هو الذى سيعرف هذه الحقيقة الوحيدة التى ستغير مجرى حياته بأكملها.

فعندما هزم الأسطول الفرنسى من جانب البحرية البريطانية بقيادة اللورد نلسون.[3] ، أصبح من المحتم على القوات الفرنسية أن تنسحب من مصر التى كانت

تحكم السيطرة عليها. وقد سأل نابليون آنذاك القنصل الفرنسى أن يقترح عليه اسم رجل ليرأس الحكومة الجديدة فى مصر، على أن يكون هذا الرجل المقترح صديقًا لفرنسا. واقترح ديليسبس محمد على بك، الجنرال التركى الذى طالما فضل الفرنسيين على البريطانيين المنتصرين، وهو الذى سيحفظ المصالح الفرنسية فى مصر.

لقد كان القنصل فخوراً بصنيعه الذى قام به لنابليون، وربما يحكى هذا الأمر بالتفصيل لابنه الجديد فى يوم ما، هذا الابن الذى ولد فى فرساى فى اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٠٥م.

وفى الغرفة المظلمة كانت هناك صرخات عالية تتردد من داخل القماط المشدود الذى تحمله القابلة. وكانت القابلة تضحك وتهدهد القماط إلى أعلى وإلى أسفل لتهدئة الطفل.

وعندما أصبح صوت القابلة مسموعًا قالت " إنه صغير للغاية. إنه فتى صغير وقصير، ولكن يا للصخب الشديد الذى يحدثه منذ وصوله ! كما لو أنه قرر أنه يكون صوته مسموعًا!".

وابتسمت أم الطفل بحنان فى وجه زوجها، وسحبت إلى الخلف خصلة من شعرها الأسود كانت معلقة فوق جبينها الأبيض. وقالت الأم" لقد اخترت له اسمًا يا ماثيو. إنه فرناندو".

فوجىء الأب بهذا الاسم . " أيطلق اسم لأمير إسبانى على ابن لقنصل فرنسى؟ بيد أن زوجته الجميلة ذات الشعر الأسود إسبانية، ومن عائلة إسبانية كبيرة هى عائلة "مونتيجو" . إنه لا يود أن ينازع فى الاسم، بل يود فقط أن يترجمه إلى اسم فرنسى.

قال الأب " إنه رجل فرنسى يا حبيبتى. سوف نسميه فرديناند" وانحنى يقبل جبهة زوجته بحنان، وحينذاك تذكر شيئًا جلب له السرور " كان هناك فردينان آخر.

أتذكرين؟ إنه الدوق فرديناند النمساوى الذى وحد النمسا والمجر.[٤] ، والآن تحقق حملة نابليون على النمسا النجاح . إنه اسم جميل يا حبيبتى".

قالت الزوجة " أتمنى أن تنتهى كل الحروب المرعبة، وأتمنى أن يعرف العالم السلام فقط خلال حياة ابننا ! هذا ما أتمناه له بقوة".

وكان الرجل الفرنسى الجديد يصرخ محتجًا أثناء استحمامه للمرة الأولى، وابتسمت الأم وقالت " إنه لأمر جيد أن تكون لديه حيوية وقوة ، سوف يحتاج إلى ذلك، إن له ثلاثة إخوة أكبر منه" .

أحضرت القابلة الطفل إلى أمه، وسرعان ما خيم النسيان على ما كان يدور من أحاديث فى أمور الدولة مع بدء الانشغال بفحص رأس الطفل ويديه وقدميه.

ولكن شئون الدولة كانت تشغل دائمًا حيزًا فى حياة أفراد هذه العائلة الفرنسية. فقبل أن يبلغ فرديناند السنتين من عمره، أوفد والده إلى مدينة ليجورن الساحلية فى شمال إيطاليا، والتى تقع على نهر ليجوريا، حيث كانت هذه المدينة فى موقع متميز يمكن منه مراقبة نشاطات السفن للحلف الثلاثى الجديد الذى أنيط به إيقاف تقدم جيوش نابليون.

لا تمثل السياسة سوى أهمية محدودة بالنسبة إلى أطفال ديليسبس، ولكن الأهم هو تحديد المكان الذى سيعيشون فيه. ففى ليجورن، التى تعلموا نطقها "ليفورنو" حسب نطقها بالإيطالية الرقيقة، شاهدوا البحر والسفن ، واستمتعوا بالشمس الدافئة فى إيطاليا ، وبالرياح الناعمة التى تهب من البحر المتوسط.

وكان البيت العتيق المضجر قد سمى "الحصن" منذ أن سكنه أمير إيطالى قبل فترة طويلة. ولهذا الحصن أو القصر بوابة مقوسة تفضى إلى الشارع ، ولكنها كانت تبقى مغلقة عندما كان الأطفال يلعبون فى ظلالها.

ولكن فيرديناند سيظل يذكر دائمًا أيام الخريف الخوالى التى كانت تجلب فيها أخشاب الشتاء لاستخدامها فى الدفايات العديدة فى الحصن. وكانت صيحات الأطفال تنبيء مسبقًا عن وصول قاطع الأخشاب، حيث كان الأطفال يقبلون من كل مكان فجأة ويأخذون فى الصياح والجرى خلف الجمال التى تحمل الأخشاب.

وفتح الحمال البوابة على مصراعيها ، وقد علا صرير مفصلاتها التى صدئت بفعل القدم والهواء الملح، ورأى الأطفال منظراً لم يسبق لهم رؤيته.

إن نصف دستة من الجمال ذات أعناق طويلة بنية اللون، وقفت وهى تطرف عيونها الناعسة ذات الوميض، حاملة على ظهورها قطعًا كبيرة من الخشب مكدسة فى سلال ضخمة. وبدت الجمال كأنها صابرة فى انتظار فتح البوابات ليسمح لها بالدخول، ولكن يبدو أنها لم تدرك أن الطريق قد فتح أمامها، أو لعلها كانت مقتنعة بأنها لم تدخل، وقام الحمالون بجذبها من ألجمتها، وضربوها بالعصى، وصرخ الأطفال فيها، وصفعوها بأيديهم على مؤخراتها، وبالكاد قوست الجمال أعناقها إلى أقصى درجة ومشت بتؤدة مبتعدة عن البوابة المفتوحة وكأنها لا تراها، ولكن الأطفال أوقفوا الجمال حتى لا تبتعد كثيراً، وأدار الحمالون الجمال مرة أخرى تجاه البوابة، ولكن يبدو مرة أخرى أنها لا تراها، وتكرر ذلك مرة تلو الأخرى ، وفى النهاية ولسبب غير معلوم لأحد ، قامت الجمال المتغطرسة ، وتحت وطأة التعب من الحمل الثقيل ومن العمل الأحمق، استدارت مجتازة البوابة ووقفت مرفوعة عيونها الواهنة بينما كان الحمالون يفرغون الأخشاب.

وبالنسبة إلى طفل عمره ثلاثة أعوام مثل فرديناند ديليسبس لابد وأن الجمال بدت له كعماليق بدائية جبارة، وكان معظم الأطفال خائفين، ولكن فرديناند لم يشعر بالخوف، وجرى على الرغم من فزع مربيته نحو الجمال وتظاهر بأنه يساعد فى تفريغ القطع الخشبية الثقيلة، وقد أدرك حينذاك أن لسان الجمل خشن الملمس، وأنّ أنفه

ناعم. وكان مسروراً للغاية بهذا الأداء الاحتفالى بأكمله، وكان يجرى وهو يغنى بصوت مرتفع بين أرجل الجمال الطويلة، والكل يسرع نحوه للحفاظ عليه من أن تطأه الجمال تحت أقدامها.

ربما كان هذا كل ما كان يتذكره خلال العامين اللذين قضاهما فى ليفورنو، ولكنه ربما لم يتذكر ذلك فيما بعد إلا عندما تعرف عن كثب على جمال أخرى بعد نصف قرن، ولولا ذلك لما استرجعت ذاكرته أول الجمال التى شاهدها فى صغره.

وكانت جولة العمل الثانية لوالد فرديناند فى كورفو.[٥] ، إحدى الجزر الأيونية حيث شغل منصب الحاكم لجميع هذه الجزر ، وكان هذا المنصب ينطوى على مسئوليات جسام آنذاك. فقد انتصرت فرنسا على النمسا والمجر فى أوسترليتز، ولكن البريطانيين هزموا البحرية الفرنسية فى الطرف الأغر . Trafalgar .[٦] ،هذه الهزيمة تسببت فى إصدار نابليون قرار برلين الذين حذر بموجبه جميع الرعايا الفرنسيين – بما فى ذلك رعايا فرنسا الجدد من الدول المهزومة – بأن أى عمل تجارى لهم مع بريطانيا العظمى يعتبر عملاً من أعمال الخيانة. وإذا ما تمكنت فرنسا من دحر البحرية البريطانية فى معركة ، فإنها ستغلق جميع الممرات البحرية أمام السفن البريطانية.

ولكن بريطانيا العظمى ما كانت لتخضع بخنوع لقرار برلين. فقد كانت هناك شائعات بأن القوات البريطانية تتجه فى طريقها نحو إسبانيا . حيث كان نابليون قد أجلس أخاه جوزيف على العرش الإسبانى بدلاً من الحاكم الإسبانى المخلوع المسمى "فرديناند". ولابد أن مهمة ماثيو فى كورفو مهمة خطيرة حيث لا يمكنه المخاطرة بتعريض أسرته للمخاطر هناك.

وقال ماثيو لزوجته " ستكون بيزا أكثر أمانًا من ليجورن، ولديك فيها أصدقاء، سوف أنقلكم إلى بيزا، وستكونون فى انتظارى هناك".

الفصل الثانى

نقطة تحول

كانت بيزا مكتظة بالجيوش الفرنسية البرية والبحرية، وبالعديد من عائلات الفرنسيين العاملين بالخدمة فى الخارج. ولمعظم هؤلاء آباء وأبناء وأزواج يشاركون فى الحرب خارج فرنسا. ولكنهم يتقاسمون جميعًا مشاعر التوتر والحزن العميقين، ووجدوا فى تسلية بعضهم البعض ما يجعل الانتظار محتملاً. وكانت كاثرين ديليسبس مثقلة بالهم لمعرفتها بأن كورفو ربما تكون عرضة لنيران العدو فى أية لحظة. ولكن تصورها بأن بين أصدقائها من هم أكثر منها خوفًا، جعلها تظهر سعادة لم تكن تشعر بها دائمًا.

لم يكن الموقف سهلاً بالنسبة إلى زوجة لها أربعة أولاد صغار ممتلئين بالحيوية. وكان الولد الأصغر بصفة خاصة يبدو دائمًا وكأنه فى مشكلة من نوع ما، وأنه يبدو دائمًا ممتلئًا بالسرور لدرجة أنه يستطيع الابتسام فى أى موقف من المواقف، حتى لو كانت هذه المواقف مزعجة، وكانت الأم ترسم لابنها هذا صورة بطولية لوالده أكثر من الواقع الذى تعرفه، وربما كانت تقوم بذلك لكى تجعل ابنها طيبًا ومطيعًا، وسرعان ما أصبح واضحًا بالتأكيد أن فرديناند يرى أن أباه كان شخصية أعظم بكثير من الإمبراطور ذاته، وهو الأمر الذى كان مدهشًا للجميع.

وحاولت الأم – متحملة المسئولية المزدوجة – أن تعلم أولادها كل شىء قدر استطاعتها. لقد كانت بيزا موطن جاليليو العظيم [٧]، الذى اكتشف قانون الجاذبية.

وبصعوبة أقنعت كاثرين أولادها ليذهبوا معها لزيارة الجامعة التى قام جاليليو بالتدريس فيها ، والتى أجرى فيها العديد من تجاربه، والتى أبعد عنها لأنه أصر على أن الأرض تتحرك حول الشمس. ولعل الأطفال كانوا يفضلون القيام بنزهة أخرى عند نهر أرنو الذى كان يثير جاذبية فرديناند وفضوله الأمر الذى كان يخيف أمه غالبًا. لماذا يشعر نهر ولداً بالسعادة الغامرة؟ ويمكن لهذا الولد أن يسأل ألف سؤال عن أرنو، ولكن الأم لا تستطيع أن تجيب إلا عن اثنى عشر سؤالاً على الأكثر.

ولذلك فإن زيارة الجامعة قد تخدم عدة أغراض ، أقلها أن تبعد ابنها الأصغر عن النهر.

واندفعت الأم تشرح الدرس بكل ثقة ممكنة. فى هذا المكان وجد جاليليو الذى اكتشف حقيقة كان يشك فيها الآخرون. ولكنه لم يدع شكوكهم تغير رأيه. وعندما يكون المرء متأكداً من أنه يعرف ، فإنه ما يقوله الآخرون أو يفعلونه لن يغير من الأمر شيئًا. هكذا كان جاليليو، فحتى التعذيب لم يجعله ينكر الحقيقة ولقد تسلح بالشجاعة والثقة بالنفس.

إن الإنسان يستطيع أن يحقق أى شىء تقريبًا إذا ما كانت لديه الشجاعة والثقة بالنفس.

" لقد أثبت فى النهاية أنه كان على صواب قطعًا. فالحقيقة تنتصر دائمًا. ولم يتنازل عن الحقيقة التى توصل إليها حتى عندما أجبره جلادوه على التوقيع على تراجع عن مقولته بأن الأرض تدور. وحتى آنذاك قال " ولكنكم تعلمون أن الأرض تدور" . وقد ختمت كاثرين شرحها بقولها " لا تدعو أى شخص يثنيكم عما تعرفون أنه صحيح".

وقبل أن تمضى عدة أيام حتى كان فرديناند يثبت لأمه أنه سمع قصة جاليليو واستوعبها. ففى صباح أحد الأيام، وأثناء قيامه بارتداء ملابسه، وقف ينظر من

النافذة حالمًا. وفجأة قفزت فى ذهنه فكرة جاليليو ، ووقف متعجبًا كيف يقتنع أى إنسان بأن جاليليو كان على صواب وكيف يمكن إثبات ذلك. هناك حقًا طريقة واحدة لاختبار قانون جاليليو حول الأجسام الهابطة من أعلى. إن مجرد حدوث شىء ما لتفاحة هل يعنى بالضرورة حدوثه لكائن بشرى؟ وبدا له أنه من الممكن أن يكون جاليليو قد أخطأ. وكانت الخطوة التالية عندئذ هى أن يلقى بنفسه من النافذة المفتوحة لاختبار قانون الحركة عند جاليليو. وانحنى فرديناند شارعًا ذراعيه كالجناحين وألقى بنفسه من نافذة الدور العلوى. ولم يكن لديه الوقت كى يتذكر أن الأشياء الهابطة من أعلى تكتسب سرعة أثناء سقوطها، حيث ارتطم جسده بالأرض محدثًا صوتًا مزعجًا، ولكنه كان واعيًا الألم الحاد فى ذراعه الذى انثنى تحته.

صرخ فرديناند، وهرعت الأم والمربية نحوه وسرعان ما استدعى الطبيب وتم ربط ذراع فرديناند المكسورة مع شريحة خشبية، مع تحذيره من تحريكه فترة من الوقت. بيد أن فرديناند أثبت لنفسه أن جاليليو كان على حق، وقد خفف هذا عنه تبرمه من بقائه محتجزًا بالبيت.

إن أكثر ما كان يضايق فرديناند هو أن ذراعه المكسورة كانت تحول بينه وبين دروسه فى ركوب الخيل الذى كان أفضل النشاطات التى يمارسها وأحبها إليه. وكان معلمه فى هذه الدروس الضابط العسكرى الشاب الكابتن كوريير.

لم يكن الكابتن كوريير مدرسًا جيدًا فحسب، بل كان صديقًا جيدًا أيضًا، عرف أن الطفل يجب أن يعامل باحترام وحنان .. ونادرًا ما كان لدى الكابتن تلميذ أظهر أخلاقيات الفارس مثل هذا الابن ذى الثمانى سنوات للسيدة اللطيفة "مدام ديليسبس". كان الغلام يتعلم بسهولة وباقتدار لدرجة أن الكابتن كوريير سرعان ما كان يتحرق شوقًا للدرس اليومى مثلما كان فرديناند.

لقد أصبح فى استطاعة فرديناند أن ينطلق، وهو على صهوة حصانه العربى – والذى يمتلكه والده الغائب – وإلى جانبه الكابتن كوريير، إلى ما هو أبعد من عالمه

المحدود الذى يتمثل فى مربيته وأمه التى ترعاه. العالم والحصان كانا يوحيان له بالسيطرة وقوة الإقناع. فالكابتن كوربير يمكن أن يذهب إلى أى مكان يرغب فرديناند فى الذهاب إليه، حتى لو كان الذهاب إلى برج بيزا المائل الذى يظهر فى الأفق. ودائماً كان يبدو لفرديناند كما لو أن البرج ينحنى تجاهه.

وفى يوم من الأيام، عندما كان فرديناند والكابتن عائدين من تدريب فى الصباح الباكر، سمعا ثم شاهدا آنذاك رسولاً فرنسياً يجرى فى الشوارع معلناً خبراً من نوع ما. وطلب الكابتن من فرديناند أن ينطلقا وراءه ليعلما الخبر، وقبل أن يتمكن الغلام من استخلاص أى شىء مما يقوله الرسول، جذب الكابتن لجام الحصان بقوة وأدار حصانه وقال لتلميذه " عد ! أو أسرع بحصانك ، يجب أن نعلم والدتك بالخبر، إنه قد يعنى أن والدك سرعان ما سيعود إلى المنزل مرة أخرى".

وفعل فرديناند ما أمره الكابتن. بل إنه نخس حصانه بالمهماز فى جنبه برفق. وطار الحصان مسرعًا فى الشارع لدرجة أن الشرر كان يتطاير من الحجارة من وقع أقدامه، وكان الهواء يضرب وجهه كلما تزايدت سرعة الحصان أكثر فأكثر، ولكنه لم يفقد السيطرة لحظة واحدة على الحصان، الذى أطلق عنانه، وشعر بالسرور للسرعة التى كان يقوده بها. ولم يكن قد سمح له من قبل أن يركب الحصان بهذه السرعة.

إن الكلمات القليلة التى التقطها عندما استمع إلى الرسول المنادى هى " يحيا الملك ! يحيا الملك! " ولكن الغلام اعتقد بالطبع أن المنادى كان يهتف لنابليون. ولكنه عندما وصل إلى البيت أدرك للتو مرة أخرى خطأ هذا الاعتقاد.

" لقد استولى الحلفاء على باريس" ، وهذا ما سمعه من الكابتن كوربير مخبراً والدته " لقد نفى بونابرت وجلس لويس بوربون .[8] ، على العرش يا سيدتى ، إن هذه بعض أفعال تاليران".

صرخت مدام ديليسبس وقالت " أواه ..... لا ! لا ! " ونظرت بخوفٍ. ولسبب ما شعر فرديناند بأنه يجب أن يقف بجانب والدته وأمسك فى يدها بقوة.

وتساءلت الأم " وماثيو؟ هل يعنى ذلك أنه سيكون أسير حرب؟ ماذا سيفعل به أولئك الحلفاء الغربيون الذين يكرهون فرنسا؟ "

أجاب الكابتن " قد يتركونه يعود إليك يا سيدتى .... لم تعد هناك حاجة إليه ليقوم بمراقبة تحركات سفن الحلفاء".

ويبدو أن الأم فوجئت بهذا الكلام. وكان فرديناند يراقب وجهها بدقة. لقد رأى الدم يصعد إلى وجنتيها وهى واقفة، تستمع وتفكر، ولمست بيدها شعرها الأسود لمسة خفيفة، وقالت بنعومة: " أحيانًا يكون هناك خير فى الأمور السيئة، أليس كذلك يا كابتننا؟ "، ووضعت يدها على رأس فرديناند ، وجذبته إلى جانبها بدرجة أكبر وأضافت " ولكن ... ولكن نابليون فى المنفى ! سيستغرق الأمر بعض الوقت لكى أصدق ذلك".

وقال الكابتن " ولكن يبدو أن ذلك صحيح يا سيدتى .. يمكنك إذا أردت أن تذهبى لتشاهديه بنفسك. إنه لا يبعد عن هنا إلا بمقدار البعد من "إلبا" .[٩] ، أقل من مائة ميل من بيزا".

وعلقت الأم " لا يا كابتن كوريير. إننى لا تعنينى رؤية الامبراطور ولكن أنت ... هل ستذهب أنت؟".

أجاب الكابتن " نعم سيدتى . ربما لا تزال هناك بعض الخدمات يحتاج إليها ويمكننى عملها له. أنت على حق، قد يحتاج الأمر بعض الوقت لتصديق ذلك".

عندئذ تركهما الكابتن، ولن يعود فرديناند مرة أخرى لركوب الخيل إلى جانبه فى شوارع بيزا المرصوفة بالحصى والحجارة.

وتتابعت أيام القلق، فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث للأزواج والأبناء والآباء والنساء الفرنسيات وأبنائهن اللذين كانوا فى انتظار عودتهم إلى بيزا. وقد غير كثيرون من الفرنسيين المهاجرين مواقفهم السياسية بسرعة، إذ لم يعودوا نابليونيين ، بل أصبحوا ملكيين، وصاحوا ، "يحيا الملك ! يحيا الملك".

وقد وضع هذا التغيير نهاية للعديد من الصداقات. هل كان الملكيون يبحثون عن مبررات للإبلاغ عن النابليونيين كبرهان على ولائهم الملكى؟

وعندما وصلتها أخيراً رسالة من زوجها، لم تخبر كاثرين ديليسبس أى شخص بها خارج أهل أسرتها المقربين، وحتى هؤلاء تم تحذيرهم من البوح بشىء لأى شخص. لقد أجبر ماثيو - العميل الموثوق فيه من حكومة نابليون - على الاستسلام للبريطانيين ، وحدث ذلك غالبًا فى اللحظة نفسها التى أعلن فيها عن الملك الجديد لفرنسا. لقد قام بتغيير السيطرة على جميع الجزر الاستراتيجية المطلة على آسيا وأفريقيا، مما جعله يشعر بأنه خائن، على الرغم من أن ذلك قد تم تحت إصرار حكومته. ولم يكن أمامه مفر من الاستسلام إذا ما أطاع الأوامر. وكان فى طريق عودته إلى باريس وقد يلتقى بأسرته هناك. وكان ينبغى على كاثرين أن تأخذ أولادها وأهل أسرتها وتغادر فوراً. ولعلها وزوجها يصلان - ربما - فى الوقت ذاته.

ولم يكن الاجتماع الأسرى اجتماعًا سعيداً. فقد أمرت الحكومة الجديدة بأن يستسلم ماثيو على الرغم من أنه أرسل فى البداية رفضه للقيام بذلك. لقد شرح مبررات عدم الاستسلام بكل وضوح. فإنه إذا ما سلم الجزر الأيونية للبريطانيين ، فقد يعنى ذلك أن تفقد فرنسا أى فرصة تلوح لها فى الأفق مستقبلاً لدخول آسيا أو أفريقيا. إنه لثمن فادح للغاية لكى تدفعه فرنسا لكسب الصداقة البريطانية.

ولكن الملك البوربونى قد يكون فى حاجة إلى بريطانيا إذا ما أراد الاحتفاظ بعرشه. ومن ثم كان الأمر الذى أرسل على كورفو هو "سلم كورفو وعد إلى باريس فوراً".

وعندما وصل ماثيو ديليسبس إلى فرنسا وجد وزارة الخارجية منزعجة من رفضه الأول لإطاعة الأوامر. وحاول أن يشرح أنه لا يزال يعتقد بأنه كان من واجبه أن يفعل ما هو الأفضل لفرنسا، بدلاً من الطاعة العمياء لبعض الأوامر الرسمية القادمة من بعيد. وقد علم لأول مرة أن زميله الملحق، الذى تركه فى كورفو، قد سجن فعلاً بتهمة الخيانة. ولم تكن أمام الملك أى فرص للمجازفات. وبالنسبة إلى ماثيو نفسه فإنه كان محظوظًا. فقد خفضت رتبته فعلاً إلى مساعد قنصل بدلاً من قنصل. وكان ذلك نبأ مؤلمًا، لأن مرتب الدبلوماسى الخارجى كان يكفى معيشته بالكاد فى أحسن الأحوال، أما مرتب مساعد القنصل فكان يكفى بالكاد شخصًا واحدًا بمفرده. وأسرة ماثيو كانت كبيرة وتتزايد. وفى الواقع فإن نابليون نفسه سأله ذات مرة " كيف تستطيع أن تدبر أمور أولادك أيها الكونت ديليسبس؟ إن لديك العديد من الأولاد". ولكن الشىء الوحيد الذى ينبغى على أى رجل فى الخدمة الخارجية أن يقبله قبل أى شىء آخر هو أن يقبل قرارات حكومته، لا سيما إذا لم يكن فى استطاعته تغييرها. وبمعنى أدق للكلمة فإنه كان متهمًا بعدم الامتثال للقرارات ولكن بسبب حبه العميق لفرنسا، ولهذا السبب فقط، فإنه كان من المتعذر عليه أن يتصرف بطريقة يشعر بأنها تؤذيها.

وبعد ذلك، وبفجائية أسرع من الرسالة الأولى التى جاءت إلى بيزا، وصلت أخبار إلى باريس بأن نابليون عاد من "إلبا" وأنه قد خلع الملك! وبلغ المزاج الفرنسى المتقلب حد الهوس بسبب هذه الأنباء المثيرة، وفجأة أصبح كل شخص فى باريس نابليونيًا مرة أخرى.

وتغيرت الصورة بأكملها – وأصبح والد فرديناند بطلاً بعد أ ن كان منعزلاً منبوذًا فى الإدارة التى يعمل بها. وأمر نابليون بأن يكافأ على موقفه الشجاع فى كورفو. ومنح لقب "كونت" الإمبراطورية، ومنح مقاطعة، أو مدينة يحكمها هو وأولاده وأحفاده، طالما وافق على ذلك حكام فرنسا.

وكان هناك مطلب آخر يود الكونت أن يطلبه من الإمبراطور. فقد كان يراقب أبناءه ، وشعر بأن هناك واحداً منهم سيسير على خطى أبيه كممثل لبلده، فقال:

" مولاى ! ابنى فرديناند، على الرغم من أنه لا يزال طفلاً، يرغب فى أن يخدم فرنسا فى وزارة الخارجية. ألم يخدم ديليسبس فرنسا دائمًا بهذه الطريقة؟ ولكنه يجب أن يعرف أشياء كثيرة لكى يكون خادمًا جيدًا لفرنسا. ومن ثم، فعلاوة على المقاطعة ، التى أعبر عن عظيم امتنانى لكم بشأنها، فإننى أود أن يحصل ابنى على تعليم أفضل، ولكن مرتبى لا يسمح لى بأن أتيح له هذا التعليم. هل يرى مولاى أن تتاح له هذه الفرصة؟

وبكل تقدير واحترام حصل ماثيو ديليسبس فى ذلك الوقت على واحدة من أعلى الجوائز تمثلت فى المنحة التى قدمتها له الحكومة الفرنسية لتعليم ابنه فرديناند.

وفيما بعد ، عندما تم نفى نابليون مرة أخرى، وإلى الأبد هذه المرة، كانت هذه المنحة هى الامتياز الوحيد الذى لم يسحب من أسرة ديليسبس ويا له من استثمار جيد لفرنسا إذا ما حققت المنحة جدواها!

الفصل الثالث

التأهيل المبكر

انتهى الحظ السعيد لماثيو ديليسبس بنفى نابليون وجلوس لويس الثامن عشر على العرش الفرنسي. فقد تم تجريده من المقاطعة واللقب اللذين كانا قد منحا له، وكان الأسوأ من ذلك أنه لن يخدم حكومته في فرنسا مرة أخرى مطلقًا. وقد سمح له فقط أن يشغل وظائف صغيرة في البحر المتوسط بقية حياته، ولم تتم ترقيته بتاتًا.

وقد ترك سوء حظ الوالد تأثيرًا قليلاً على فرديناند الصغير الذى كان مسجلاً فى الدراسة بليسيه نابليون عندما كان فى سن العاشرة. ولكن ما كاد الفصل الدراسى الجديد يبدأ حتى كان اسم المدرسة قد تغير من ليسيه نابليون إلى كلية هنرى الرابع، وهكذا قرر النظام الجديد أن يمحو اسم نابليون من أذهان صغار الفرنسيين.

وسرعان ما وجد فرديناند أن مستواه الدراسى أعلى بكثير من المستوى العادى، وأنه يستطيع أن يتفوق على أقرانه فى الألعاب الرياضية أيضًا، وتعلم فرديناند اللغتين المعتادتين وهما اللاتينية واليونانية، والتقى مرة أخرى صديقه القديم "جاليليو". وعادت إلى ذاكرته الزيارة التى أخذته أمه فيها إلى جامعة بيزا. ولكن تفوقه الأبرز كان فى الألعاب الرياضية. لقد أعطاه قوامه الصغير وطاقته المدهشة تميزًا عن الأولاد الآخرين. كان رشيقًا وسريعًا فى المبارزة بالسيف وفى الملاكمة. وفى إحدى المرات،

بلغ به السرور مبلغه، عندما كان قرار الحكام فى مباراة للملاكمة إعلان فوزه على واحد من أبناء لوى فيليب من البيت الملكى فى أورليانز، وهو الذى جلس على عرش فرنسا فيما بعد.

لم يزل فرديناند غير قادر على تجاوز الانجذاب نحو الأنهار كان هناك الـ " أرنو" فى بيزا. وفى باريس هناك نهر السين. وكانت الأنهار مليئة بالغموض بالنسبة إليه، حيث تجرى مياهها إلى الأبد نحو مقصد لا يمكنه اكتشافه مطلقًا. وتبدو المدن على امتداد الأنهار وكأنها مرتبطة برابطة سرية من نوع ما بالأنهار التى تشق طريقها خلالها.

وكان فرديناند سباحًا ماهرًا، وكانت تجمع بينه وبين النهر صداقة دائمة.

وحدث ذات مرة عندما كان فى الليسيه أنه ذهب يتنزه مع مجموعة من الأولاد فى سان جرمان. وقرب المساء وقف الأولاد عند النهر فى انتظار القارب الذى سيعيدهم إلى المدرسة. ولكن القارب تأخر وبدأ صبر الأولاد ينفد شيئًا فشيئًا.

وقال أحد الأولاد مازحًا " يمكننا أن نقطع النهر سباحة من هنا وأن نهزم القارب".

ولكن فرديناند حول المزحة إلى تحد، وقال " لماذا لا نفعل ذلك؟ سنعوم ونرى من يصل أولاً ". ودفع الاقتراح الأولاد إلى التصايح والثرثرة بصوت مرتفع. اعتقد البعض أن الفكرة خرقاء، ووافق آخرون على القيام بمحاولة ، واعترض البعض بأنهم يجب أن يلتقوا قبل اتخاذ قرار للعوم فى هذا النهر الواسع.

قال الأولاد "نهر السين أوسع مما يبدو عليه هنا " .... " وماذا سنفعل مع ملابسنا".

وبسرعة بدأ فرديناند يريهم كيف يفعل. خلع حذاءه وربط الفردتين معًا فى العصابة الملفوفة حول رجله، ثم وضع قميصه وجوربه القطنى داخل قبعته الصوفية،

ولبس القبعة على رأسه. ووجد بعد ذلك عصا طويلة، وعلق عليها معطفه وسترته وبنطاله القصير، ورفعهما إلى أعلى. وبملابسه الداخلية فقط نزل فى النهر برجليه، ممسكًا بالعصا، مرفوعة نحو السماء ، بإحدى يديه ، وبدأ يسبح بالأخرى.

وسرعان ما وجد صعوبيات لم يحسب لها حساب .... إذ تكتنف النهر تيارات خفيفة أو دوامات هددت بجذبه إلى أسفل. وبذل كل طاقته بذراعيه القويتين لمصارعة هذه التيارات، ولم تعد هناك يد مخصصة لرفع ملابسه إلى أعلى. ومرة تلو الأخرى كان يترك العصا موجهًا كل قوته للتيار، ثم يرجع مرة أخرى لإنقاذ ملابسه، ويرفع العصا إلى أعلى من جديد، حيث كان التقدم أيسر. لقد بذل ضعف الجهد الذى كان يعتقد أنه سيبذله ، فيما بين مقاومة التيار وإنقاذ ملابسه . وبدا له النهر وكأنه يتسع كلما تقدم فى السباحة. وانهكت ذراعاه ولم يستطع مقاومة ابتلاع الماء، وأدرك أن تنفسه يضيق شيئًا فشيئًا. ولكنه لم يستسلم. إنه لا يمكنه الاستسلام، وطالما أنه بدأ فما عليه إلا المتابعة حتى النهاية.

وحاول أن يستلقى على ظهره فوق المياه حتى يتمكن من التنفس بشكل أسهل. وحاول أن يسبح واقفًا بتحريك رجليه إلى أعلى وإلى أسفل. وأصبح يتألم لكل نفس يتنفسه الآن.

ثم أنه بمجرد أن صار يائسًا من بلوغ الشاطىء الآخر، لمس أصبع قدمه الطين. ولو بقيت لديه قدرة على التنفس ، لصرخ بأعلى صوته، ولكن كل ما كان بإمكانه هو أن يبتسم ابتسامة عريضة، ووقف على قدميه وسار نحو الشاطىء. لقد هزم القارب!

على الرغم من أن هذه المغامرة كانت رعونة لا داعى لها، فإنها جعلته بطلاً أمام زملاء الدراسة. وقد استمتع بذلك، وفعل ما يمكن فعله للمحافظة على هذا المركز طوال فترة بقائه فى الليسيه.

إن هزيمة نابليون وما ترتب عليها من اضطرابات فى الدوائر السياسية جعلت الفرنسيين الشباب واعين بالمسائل السياسية فى مرحلة مبكرة جدًا من حياتهم أكثر مما كان يمكن أن يحدث فى الأوقات العادية. وفعل أساتذة الليسيه ما أمكنهم لتحويل اهتمام التلاميذ نحو التفكير السياسى العميق. وفى الحقيقة فإن هؤلاء الأولاد الصغار وأبناء الطبقة الأرستقراطية الشبان، سيقودون فرنسا فى يوم ما فى مجار سياسية أكثر استقرارًا. وكان من المهم لفرنسا أن يتم تعليم هؤلاء بعناية فائقة.

وهكذا تعرف فرديناند على مدارس عديدة للفكر السياسى والفلسفى. ولكن المفكر السياسى الذى كان أكثر جاذبية له هو كلود هنرى كونت دى سان سيمون [١٠]. الذى كان يحلم بعالم بلا حروب، حيث تكون الحروب غير مرغوب فيها لأنها تعرقل التدفق الحر للتجارة، هذا التدفق الحر يحقق لدول العالم فوائد أكبر بكثير من الحروب.

إن هذه التجارة الحرة يمكن أن تتحقق من خلال طريقين بحريين طويلين يختصران الطرق التجارية للعالم. وأحد هذين الطريقين يكون بربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط عبر الأراضى المصرية، والطريق الثانى يكون بالربط بين المحيطين الهادى والأطلنطى عبر أمريكا. وسرعان ما تبنى فرديناند حلم سان سيمون كما لو كان حلمه الخاص، وكتم هذا الحلم فى قلبه لسنين عدة، إلى أن تحدث أمور تجعل الحلم يتحول إلى حقيقة ملموسة.

وهناك مبدأ أخر من مبادئ سان سيمون طالما كان فرديناند يتذكره دائمًا. فقد قال سان سيمون بأن هدف كل حكومة يجب أن يكون " إعطاء كل إنسان مهنة تتفق مع كفاءته، وأن تدفع لكل كفاءة ما تستحقه". وكان فرديناند يعتقد أن ما كان يدفع لوالده منذ نفى نابليون كان أقل بكثير من كفاءته الحقيقية.

وعندما يشهد العالم حروبًا كثيرة، عندها يبدو السلام وكأنه أعظم مطلب مأمول، وأنبل غاية تنشدها الحكومات فى كل مكان. إن مثل هذه الأوقات من التاريخ هى التى صنعت المثالية لدى شباب العالم. ولم يكن فرديناند ديليسبس استثناءً من ذلك، ولكنه كان أيضًا واقعًا بسبب مطالب الحياة القاسية.

كان لدى معظم أصدقائه فى المدرسة أموال ينفقونها أكثر بكثير مما كان فى مقدور والد فرديناند أن يرسله إليه. ولكنه رأى أنه من المهم أن يرفع مستوى معيشته إلى مستويات أبناء الطبقة الأرستقراطية الفرنسية هؤلاء. ولذلك حصل على وظيفة لجزء من الوقت فى مكتب بريد باريس خلال العامين الآخرين من دراسته فى الليسيه. وقد وفر له ذلك العمل مزيداً من المال الذى يحتاجه للإنفاق. وبعد تخرجه، وفى انتظار تعيينه فى أحد المواقع فى وزارة الخارجية، بدأ يعمل كاتبًا مع عمه المفضل لديه بارثلمى ديليسبس.

كان هذا العم مغامر العائلة . وقد قرأ فرديناند مرارًا كتابًا وجده فى مكتبة البيت يصف فيه عمه مغامراته خلال سنوات خدمته الأولى فى وزارة الخارجية الفرنسية. وكانت هذه المغامرات قبل أربعين سنة، و لكن القصة بالنسبة إلى فرديناند ، على الرغم من كيفية قراءته لها، بدت له وكأنها تحدث فى الوقت الحاضر.

وبسبب براعته فى اللغات، وهى براعة اشتهر بها آل ديليسبس جميعًا، اختير بارثلمى لمرافقة حملة استكشافية عامة بقيادة جان دى جالوب، كونت دى لابيروز. وكان ذلك فى عهد لويس الثامن عشر. وكانت البعثة مكونة من بارجتين مجهزتين جيداً، ومزودة بعلماء فرنسيين. وقد اختير بارثلمى لأنه يستطيع التحدث باللغة الروسية ويفهمها.

ودارت الحملة حول "كيب هورن" واستكشف الشاطىء الغربى للولايات المتحدة ، حيث كانت فرنسا مهتمة بالقارة الجديدة التى تسيطر على إقليم فيها، وكانت حينذاك تشيِّد مزيداً من القلاع والحصون فى تلك البلاد لكى تزيد من تجارتها فى الفراء.

وتابعت الحملة مسيرتها حتى كندا فى الشمال، ثم عبرت المحيط الهادى ميممة شطر الشمال فى اتجاه كامشاتكا Kamchatka . وأنذاك كانت الأموال والمؤن قد نفدت. وكان المخرج الوحيد لكى تتابع الحملة رحلتها هو إرسال شخص إلى فرنسا براً ومعه التقارير العلمية للرحلة حتى تاريخه، وذلك لاقناع البلاط الفرنسى بأن الحملة يجب أن تستمر. وقد اختير لهذه الرحلة الخطيرة بارثلمى ديليسبس.

عبر بارثلمى سيبيريا بحذاء الجليد وزحافة تجرها الكلاب. وكان كل ميل جليدى يمثل تحدياً للصمود والشجاعة البشرية. وقد نجا بالكاد من الموت مرة بعد مرة، بسبب التجمد أولاً، والجوع بعد ذلك، وعندما وصل إلى فرساى كان مجرد حطام رجل، ولكن تقارير لابيروز كانت لا تزال سليمة.

ولفترة من الوقت كرم بارثلمى فى البلاط الفرنسى ، وكان يخاطب بلقب صياد "كاثاتكا" وروى حكايته عدة مرات فى دوائر البلاط. لقد كان حدث الموسم المثير.

وكانت النتيجة زيادة الأموال فوراً، وسفينة محملة بالمؤمن لإنقاذ الحملة، وعلى ظهرها بارثلمى ديليسبس ليوجه القبطان. ولكن وصلت هذه السفينة إلى المكان الذى ترك فيه بارثلمى رفاقه، لم تكن هناك أية سفن على الإطلاق. ولم يتمكنوا من العثور على أى أثر لهم، ولم يجدوا أى شخص رآهم. وذكر أحدهم أنه رأى مثل تلك السفن فى خليج بوتانى، ولكن عندما ذهب فريق الإنقاذ إلى هناك لم يجدوا شيئاً. لقد تلاشوا كما لو أنهم انتزعوا من البحر. وبدا الأمر كما لو لم تكن هناك حملة بالمرة.

وعاد بارثلمى إلى روسيا حيث كان مقيماً هناك عندما بدأت الحملة، آملاً أن يسمع فى يوم عن رفاقه. وبعد ذلك نشبت الثورة الفرنسية وصدرت له الأوامر بالعودة إلى فرنسا.

إن التلهف الذى كان يبديه فرديناند دائمًا عندما كان يستمع إلى مغامرات عمه جعله أثيرًا عند الرجل العجوز. وكان بارثلمى عندما تخرج ابن أخيه مقيمًا فى لشبونة فى البرتغال، وطلب إرسال ابن أخيه عنده ليكون مساعدًا له. وكان هذا العمل أول عمل لفرديناند. وكان أمامه الكثير ليتعلمه ، وأثبت عمه أنه معلم قدير.

ومكث فرديناند فى لشبونة تحت رعاية عمه ثلاث سنوات، ثم لحق بوالده الذى كان متمركزًا فى تونس. ولكنه عندما ذهب إلى تونس حمل معه الذكرى الحية لعمه بارثلمى ومقولته الشهيرة التى طالما رددها وهى " تذكر دائمًا أن العالم وطنك، ولكن فرنسا هى حبك".

وشكر فرديناند الله على أنه ولد فى عائلة من الدبلوماسيين اللذين زوداه بهذا التدريب الممتاز فى أولى خطواته الوظيفية. لقد تدرب كل من أبيه وعمه على تاليران [١١]، الذى كان فى يوم ما وزير خارجية نابليون، ولكنه الآن يوجه مصائر بيت آل بوربون. وقد ردد كل من الأب والعم على مسامع بارثلمى الخطبة القصيرة التى كان يوجهها تاليران دائمًا لقناصله الجدد قبل أن يعطيهم التعليمات.

" كم من أشياء كثيرة يجب أن يعرفها المرء لكى يكون قنصلاً جيدًا، لأن واجباته لا حدود لها من حيث تنوعها، وأن طبيعة واجباته تختلف عن تلك الواجبات المنوطة للموظفين الرسميين الآخرين فى وزارة الخارجية ، إنها تتطلب كمًا هائلاً من المعرفة العملية التى تحتاج بدورها إلى تعليم خاص.

ويجب على القناصل أن يكونوا قادرين على القيام، عند الضرورة بواجبات القاضى، والمحكم والموفق. يجب أن يكونوا قادرين على القيام بعمل موثق العقود، والقيام أحيانًا بعمل قائد البحرية، عليهم أن يرعوا الشئون الصحية، ويتوقع منهم، بفضل علاقاتهم العامة، أن تكون لديهم فكرة واضحة عن حالة النقل البرى والبحرى، والصناعة الخاصة بأماكن إقامتهم".

ولكن تاليران لم يضف أنه يتوقع من القنصل أيضًا أن يعطى انطباعًا جيدًا فى المجتمع ، وأنه يجب أن يكون راقصًا جيدًا، ومتحدثًا بارعًا، قادرًا على عرض وجهات نظر الآخرين، وأنه يجب أن يكون ناجحًا مع النساء دون أن يثير الغيرة فى نفوس حراسهن. وباختصار، يجب أن يكون جذابًا دائمًا، ومبهجًا دائمًا، ولكن يجب أن يكون حذرًا للغاية عند ظهور أول بادرة للخطر.

نعم، إن نائب القنصل الجديد فى تونس مؤهل جيدًا على ما يبدو لشغل منصبه الجديد.

الفصل الرابع

مفارقات غريبة

تغيرت رءوس الحكومة الفرنسية مرة أخرى فى عام ١٨٣٠ عندما أزيل عن العرش شارل العاشر .[١٢] ، الأخ الأصغر للويس الثامن عشر، وألبس لويس فيليب التاج، وهو من بيت أورليانز. ووردت الأنباء ببطء إلى تونس، ولكنها عندما وصلت هذه الأنباء كانت أنباء جيدة بالنسبة إلى ديليسبس.

كان لويس فيليب .[١٣] ، قد أمضى شبابه فى المنفى، فى أمريكا أولاً ثم فى إنجلترا. لقد زوده تعليمه الأجنبى بأفكار عن الديمقراطية، وأن التغيير على ما يبدو سيكون لصالح فرنسا. وسيكون التغيير جيداً أيضاً بالنسبة إلى ماثيو ديليسبس بصفة خاصة، حيث سيضع نهاية لنفيه الطويل الآن بعودة لويس فيليب إلى فرنسا. ومن يستطيع أن يفهم حقارة النفى أكثر من الإمبراطور؟ ومن يستطيع أن يدرك أكثر منه شوق المواطن الفرنسى للعودة إلى فرنسا؟ هذا فضلاً عن الحقيقة الإضافية وهى أن فرديناند وأولاد الملك - الذين كانوا زملاء فى الدراسة - ستجعل بالإمكان الاقتراب من الحاكم الجديد. لقد راسل ماثيو وزارة الخارجية، ولكنه راسل أيضاً الملك نفسه. ولقد أصبح آنذاك رجلاً هرماً مريضاً، ممتلئاً بالمرارة وعدم الرضا.

ومن المؤكد أن فرنسا ستقدم له المعروف الأخير قبل أن يموت.

إن مثل هذه المناشدات تستغرق وقتاً. وعندما قدم المعروف كانت المواصلات بطيئة، حيث تصبح الأخبار قديمة قبل أن تصل إلى أولئك المهتمين بها. ولم يتحمل

ماثيو ديليسبس الانتظار الطويل، إذ كانت قد وافته المنية عندما وصلت الرسالة إلى تونس والتى تمنحه إذنًا بالعودة إلى فرنسا.

وصل فرديناند إلى فرنسا مع جثمان أبيه عام ١٨٣٢, وقد أمر بأن يبقى فى بيته إلى أن يعاد تعيينه، كما أن أمه الراغبة فى تحقيق الحلم الأخير لزوجها الراحل، قررت أن تستقر فى فرنسا حسبما كانوا قد خططوا لذلك.

إن خسارة الوالد كانت خسارة حقيقية بالنسبة إلى فرديناند ، لأنه لن يكون قادرًا بعد ذلك على الحصول على خبرة والده ومعرفته المتميزتين. وينبغى عليه أن يعتمد فحسب على حكمه الذاتى، وأن يتخذ قراراته بمفرده، معترفًا بعدم ارتياحه للعمل وفق أهوائه دون وزن للنتائج. هل لا يزال بإمكانه أن يشعر بيد والده الحانية فوق كتفه؟

وتم تعيين فرديناند فى مصر. ولا يزال محمد على هو نفسه الذى اختاره ماثيو ديليسبس من الجيش التركى ليكون واليًا على مصر، حيث كان فى أثناء حملة نابليون على مصر .(١٤) ، يشغل منصب الباشا فيها. إنه لأمر غريب أن يرسل فرديناند فى الوظيفة ذاتها التى كان يشغلها والده آنذاك. هل يتذكر محمد على ذلك؟

كانت حالات وباء الكوليرا قليلة الانتشار قد بدأت تسبب الرعب فى المدن الساحلية لفرنسا، فى الوقت الذى كان على سفينة نائب القنصل أن تبحر فيه متجهة إلى مصر، وانتشرت الشائعات فى مارسيليا، وكان المسافرون على السفينة قلقين ، ولكنهم تنفسوا الصعداء وشعروا بالنجاة عندما رفعت السفينة أشرعتها وانسابت فى البحر ميممة شطر الإسكندرية. ولو أنهم انتظروا بضعة أيام لكانوا قد احتجزوا فى الحجر الصحى فى الميناء لمدة شهر على الأقل.

وسارت الرحلة رتيبة حتى اليوم السابق لرسو السفينة فى الإسكندرية. وفى مساء ذلك اليوم اشتكى أحد البحارة من صداع فى رأسه، ومات قبل حلول الصباح.

وصدمت هذه الأخبار كل من كان على الشاطىء. وقام قبطان السفينة بإلقاء الجثة فى البحر بسرعة ، ولكن كان من الضرورى إبلاغ ذلك إلى السلطات فى الإسكندرية.

وأمرت السلطات فى الميناء أن تبقى السفينة فى عرض البحر لمدة أسبوعين. وإذا لم تظهر حالات كوليرا جديدة يمكن للسفينة أن تدخل إلى الميناء.

أسبوعان من البطالة قرب نهاية الرحلة. لم يكن لدى أى إنسان فكرة عن التسلية. فقد أمضى المسافرون وقتهم فى التذمر من التأخير، يلومون القبطان على بدئه الرحلة، ويلومون البحار على موته، ولكنهم اتفقوا فى النهاية على أنهم ربما كانوا محظوظين حيث لم يحدث لهم أسوأ مما حدث.

وقد استزاد القنصل الفرنسى فى الإسكندرية من معلوماته المهنية بقراءة كتب القبطان عن تحسين الشروط الصحية فى أوقات وباء الكوليرا. وفى الإسكندرية تعاطف الوزير الفرنسى فى مصر مع نائب القنصل وفعل كل ما يستطيعه للتخفيف من سأم الرجل، وبعث رسولاً إلى السفينة المحجور عليها بحزمة من الكتب. ولعل هذا الدبلوماسى الشاب الجديد قد يستغل وقته بأحسن شكل أثناء فترة الحجر الصحى فى القراءة حول البلد الذى سيخدم فيها.

وفتح الدبلوماسى – الذى يبلغ من العمر سبعة وعشرين عامًا – حزمة الكتب بشغف وقلب صفحات الكتاب الأول ، ثم الثانى ، وأخيرًا قلب صفحات أحد المجلدات بنهم أدهش فيما بعد وزير الخارجية. كان هذا الكتاب عبارة عن التقرير المنشور لاكتشافات "لابير" مهندس نابليون فيما يتعلق بالمسوح والخطط الخاصة بقناة مقترحة تربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط. وكان هذا أفضل ما جذب اهتمام فرديناند عندما كان يدرس فى الجامعة: مشروع سان سيمون من أجل السلام العالمى، طريق تجارى يستخدم بسلام من جانب كل دول العالم!

لماذا اهتم نابليون فعلاً ببناء واحدة من هاتين القناتين ذاتها!

كان هناك الكثير مما عرفه فرديناند من كتاب لابير بالفعل. لقد عرف أنه كانت هناك قناة تربط نهر النيل بالبحر الأحمر قبل "ثلاثة آلاف سنة" ، وامتلأت بالطمى فى النهاية وأصبحت لا نفع فيها إلى أن أعيد بناؤها فى زمن "دارا" .Darius (١٥) ، لتكون ممرًا بين آسيا وأوربا أثناء الحروب الفارسية - وكان والده قد أخبره بما يكفى عن حملة نابليون إلى مصر، كما عرف بأن نابليون أمر بالاستيلاء على مصر، وطرد الإنجليز ، وتدمير طرقهم التجارية.

إن ارتباط ذلك بإعطاء فرنسا طريقًا جديدًا يصل إلى الهند سيغلق الباب أمام إنجلترا ، ولهذا أمر نابليون لابير لبحث إمكانية حفر قناة تربط نهر النيل بالبحر المتوسط.

هذا هو التقرير الذى كان يقرأه الآن، والذى وجده آسرًا .

لقد اعتقد لابير أن تكلفة إقامة قناة قد تكون ما بين خمسة وعشرين مليون فرنك وثلاثين مليون فرنك ، لأنها يجب أن تكون قناة ذات هويس مغلق بسبب الاختلاف فى منسوب مياه كل من البحر الأحمر والبحر المتوسط.

ولم يعتقد أنه بالإمكان بناء ميناء فى بيلوز .(١٦) ، إنها ستكون قناة متعرجة، تبدأ من الإسكندرية إلى السويس عن طريق بولاق وسرابيوم والشلوفة. واعتقد أن القناة ستخدم كطريق دائم للتجارة مثل طريق رأس الرجاء الصالح، وربما يكون استخدامها مقصورًا بشكل أسهل كثيرًا على الدولة التى تسيطر عليها، وكان لابير يعرف أن هذه الدولة هى فرنسا بطبيعة الحال.

أدرك فرديناند ديليسبس ، وهو يقرأ كلمات لابير، أن قناة كهذه إذا ما قدر لها أن تجلب السلام إلى العالم ، لا يجب أن تدار من جانب فرنسا، أو من جانب أى دولة أخرى، بل أن تدار بمعرفة أمم العالم المتحدة. إن مصر هى البوابة التى يجب أن تمر عبرها كل التجارة ولم تتحرر مصر مطلقًا من النفوذ الأجنبى، ولذلك فإن صداقتها ذات أهمية قصوى لكل دولة فى العالم.

إن هذه الفكرة جعلت فرديناند يتخذ موقفًا جديدًا أكثر أهمية من يقينه الأولى السابق. فالنوايا الحسنة لمصر أمر جيد للتجارة العالمية، لا سيما تجارة الهند مع فرنسا. فهل يمكن إقناع محمد على بشق قناة كهذه كما حلم بذلك لابير؟ كان محمد على رجلاً ، على الرغم من عدم ألمعيته ، يعمل على جعل بلده قويًا عن طريق القيام بالأشغال العامة العظيمة، وقد تكون قناة السويس بمثابة التاج الذى يتوج به عهده. إن هذه الفكرة جعلت أيام الانتظار العقيم تبدو مثيرة غالبًا لنائب القنصل الجديد.

وفور رفع الحجر الصحى، أسرع فرديناند إلى وزارة الخارجية ليبدأ عمله. وأخبر وزير الخارجية بأن "الكتب كانت طوق النجاة ... وكان أفضلها على الإطلاق تقرير لابير".

ورد الوزير " اعتقدنا أنها ستكون مفيدة لك لتعرف خلفية بلدنا فى الشئون المصرية".

ولمح فرديناند بالقول " يمكن أن تكون القناة أداة للسلام".

وابتسم الوزير قائلاً " أو للحرب"

وتساءل فرديناند " لماذا لا يقوم الباشا بشق القناة". وأجاب الوزير " ربما للسبب التقليدى ذاته وهو أن الآخرين رفضوا شقها. إنه لا يهتم بإقامة طريق تجارى للكفار". وعلق فرديناند " أنحن يعنى؟" ورد الوزير " يعنى كل الدول المسيحية، كلها جميعًا كما أعرف. ولكن إذا كنت مهتمًا بذلك، لماذا لا تسأل الباشا نفسه؟ وعلى الرغم من ذلك، عليك أن تستخدم الدبلوماسية. سآخذ لك موعدًا لترى محمد على غدًا".

قال فرديناند " لقد أوصى به والدى لنابليون. أى نوع من الرجال هذا المحمد على؟

" إنه إنسان فظ ضخم فى مظهره، لم يتلق تعليمًا، ولكنه بالفطرة داهية كبير. سوف ترى ماذا يشبه عندما تتحدث معه".

الفصل الخامس

مع محمد على

رحب الوالى بنائب القنصل الفرنسى بعاطفة شديدة قائلاً له " والدك كان صديقى. وابن صديقى موضع ترحيب مضاعف فى مصر. ألم يكن أبوك ونابليون العظيم على يقين من أننى ما أزال جنديًا تركيًا لا حاكم مصر".

أجاب فرديناند بأدب " مما سمعته يا سيدى أن والدى كان جيد الحكم على الرجال. وما تفعله فى مصر يؤكد أن توصيته كانت سديدة".

وتابع محمد على قوله " لقد تعلمنا الكثير من الغرب. ربما بمرور الوقت نكون قد تعلمنا بالقدر الكافى حتى يمكن لنا أن نتحرر من النفوذ الغربى بأكمله. ولكن فى الوقت الراهن لدينا مهندسون غربيون يتولون أشغالنا العامة ، ولدينا مدرسون غربيون لمدارسنا، ولدينا أطباء وعلماء غربيون يساعدوننا فى حل مشكلات مصر".

بيد أن هناك مشكلة ليس بمقدور المدرسين المستوردين أنفسهم حلها. فالابن الأصغر لمحمد على ، وهو سعيد كان سمينًا للغاية، ومن المؤكد أن طفلاً فى العاشرة من عمره يؤرق الوالد على ما يبدو عند رؤيته أو حتى عند ذكر اسمه. وما كاد محمد على يستقبل نائب القنصل الفرنسى حتى كان ينظر إليه بتأمل عميق.

قال الوالى " لقد بلغنى أنك فارس جيد. وسوف نخصص لك حصانًا جيداً طالما أنك معنا هنا". وفجأة صفق الوالى بيديه بشدة، وجاء خادم من وراء الأستار.

قال الوالى آمرًا " احضر إلى ابنى سعيد".(17) ،

وجاء الولد . قصير وسمين وغبى وشديد الارتباك، يشعر بالخجل عند مقابلة شخص غريب.

قال الوالد " ابنى سعيد .... انظر إليه، انظر إلى كل هذه السمنة".

وسدد بقبضة يده القوية ضربة إلى معدة الولد.

علت حمرة الخجل وجه الغلام وتراجع إلى الخلف، وهو يعض شفته كما لو أنه يمسك لسانه عن كلمات لا يجرؤ على قولها.

التفت محمد على إلى ديليسبس قائلاً "إنك تركب ظهر الحصان، هل تعتقد بأن هذا الولد يمكن أن يفقد بعضًا من وزنه إذا ما ركب على ظهر الحصان؟"

أقر فرديناند بذلك " قد يفقد بعضًا منه" ، وحاول أن يبتسم فى وجه الولد الذى كانت عيناه مسودتين من الغيظ. وكان فرديناند يفكر فى كيف أن الولد يشبه الوالد إلى حد كبير.

وسأل محمد على " هل يمكنك أن تعلمه كيف يركب الحصان جيدًا؟ وكيف يمكن أن ينقص وزنه عندما يفعل ذلك؟".

أجاب فرديناند " سأحاول يا سيدى"

" هل تحب ذلك يا سعيد؟ هل تحب أن تركب الحصان مثلما يفعل لواءاتنا العرب؟"

طأطأ الولد رأسه ، ولم يقل شيئًا. وابتسم له فرديناند ابتسامة عريضة. وقال له " تبدو متشوقًا إلى ذلك. لا تخف من الحصان، هل تخاف منه يا بنى؟"

أجاب الولد " لا يا سيدى ولكن يبدو أننى لا أستطيع أن أستقر على ظهر حصان" ووعده ديليسبس قائلاً " ستستطيع".

وصفق والد الغلام طلبًا لخادم وقال " احضر لى بطاقة درجات سعيد. إننى أود أن يطلع عليها نائب القنصل".

" انظر الآن" ، قال محمد على ذلك داعيًا ضيفه لرؤية البطاقة ، وأضاف " كل هذه الدراسات – يدرس أربع عشرة مادة مختلفة – من أجل ماذا، إننى لا أعرف أو لا أهتم فى الواقع. إنهم أولئك المدرسون الغربيون، يجب أن يعرف القراءة، يجب أن يعرف حروف الهجاء، يجب أن يعرف هذا، يجب أن يعرف ذاك. إننى لم أتعلم القراءة إلا عندما كنت فى سن الأربعين، وحتى الآن لا أجيد القراءة. ولكن ما أهمية ذلك؟ أنا لا أهتم بكل هذه الأعمدة التى فى التقرير. كل ما فعله فى هذه الدراسات لا بأس به – مهما يكن ما فعله – ولكن هذا هنا فى هذا العمود – هذا ما لاحظته عن كثب .... وزنه .... إذا ما نقص رطلاً فى الأسبوع سأكافئه. وإذا ما زاد رطلاً فإننى سأعاقبه. ولكننى سأعاقبه حالاً. لقد زاد رطلين وربع منذ الأسبوع الماضى. ولذلك يجب أن أعاقبه".

وتساءل ديليسبس " لماذا؟".

ورمق الوالى زائره بطرف عينه، ونظر متحيرًا وتعجب "لماذا؟".

رد ديليسبس " نعم .... لماذا؟ إذا لم تكن العقوبة قد أثمرت".

واهتز جسد محمد على الضخم مع ضحكة مكتومة وقال " سؤال منصف للغاية أيها القنصل ديليسبس. ولكن بأى وسيلة أخرى أعلمه بضرورة ألا يبدو مثل الخنزير؟".

والتقط القنصل بطاقة الدرجات، وعد درجات المواد الأربع عشرة فوجد أن الطفل قد حصل على درجات جيدة فى معظمها. أربع عشرة مادة! لا عجب أن يكون الغلام حزينًا ومكتئبًا. كم من الوقت بقى له لكى يلعب؟

ونظر إلى سعيد وابتسم " مع جدول دراسى كهذا إننى أتعجب كيف لم تختف كلية. إنه إنجاز أن تتمكن من كسب وزن زائد على الرغم من هذا العمل المضنى".

نظر الولد مندهشًا . بدا في البداية مرتبكًا. لم يكن معتاداً على الإطراء. هل يمكن أن يكون القنصل راغبًا في إغاظته على نفس الشاكلة التي يحاول الجميع إغاظته بها؟ ولكن يبدو أن القنصل جاد. عيناه تنبئان عن الصدق. وأشرق وجه الطفل، ولكنه لم يقل شيئًا. إنه لا يتكلم إلا نادراً عندما يكون أبوه حاضراً. إنه يعلم بمرارة أن أي شيء يقوله لا يسر والده على ما يبدو.

واقترح نائب القنصل " أوقف ذلك العقاب هذا الأسبوع يا مولاي .... دعني ألتقي الغلام لمدة ساعة أو ما يقارب ذلك كل يوم. وربما مع حلول الأسبوع القادم تشتري هدية".

وكان فرديناند يتذكر طفولته في إيطاليا، والسعادة التي كانت تغمره عندما كان يركب الحصان مع الكابتن كورييير. وربما تخفف دروس ركوب الخيل ضغوط المواد الأربع عشرة المختلفة. وعلى أية حال، فقد بدا لدى ديليسبس أن ما يحتاجه الولد لم يكن الثواب أو العقاب، بل يحتاج إلى صديق، صديق يمكن أن يكون موضع ثقة، صديق يشعر بالأمان في وجوده، ويعرف أنه لا يسخر منه.

وسرعان ما بدأ الأمير الصغير ينظر إلى مقر نائب القنصل كملاذ للراحة، وكمحراب للهروب من مدرسي الوالي. وفقدت دروس ركوب الخيل رهبتها بسرعة، وأمكن للأمير الاستمتاع بها. إن بإمكان المرء أن يهرب من الدراسة بأن يبتعد عنها بركوب الخيل. ووقع في البداية من على ظهر حصانه مرات أكثر من مرات استقراره فوقه، وكانت هذه حوادث تدفع إلى محاولة إنقاص بضعة أرطال من السمنة البشعة.

ولكن عندما انتهى الدرس، ذهب الولد إلى مقر ديليسبس، حيث يمكنه أن يشعر بالحرية في أن يحملق بلا هدف في الفضاء إذا ما رغب في ذلك، أو أن ينام ، أو أن يقرأ، أو أن يتكلم في الأشياء التي كانت تهمه أكثر من غيرها. لقد كان طفلاً ذكيًا ، لديه حب استطلاع للعالم من حوله.

وعندما اكتشف الاثنان أن لديهما مصلحة عظيمة مشتركة، فإن صداقتهما توطدت إلى الأبد ، لأن كليهما لديه فضول شديد فيما يتصل بالقناة المصرية القديمة. وغالبًا ما كان ركوبهما الخيل يجرى على امتداد الأشغال الأرضية للقناة القديمة، حيث كانا يتتبعان آثار مجراها.

ومع تقدم سعيد فى ركوب الخيل، ونمو الصداقة بينه وبين ديليسبس، فاقت أسابيع الجوائز والمكافآت الأسابيع التى كان يتوقع سعيد العقوبة فيها. ولم يعد فى حاجة بعد إلى أن يرضى شهوته الجامحة نحو متعة الطعام.

كما لم يعد بالطبع يستمتع بوجبة دسمة، علاوة على تناول الحلويات المعتادة فيما بين الوجبات. إن الطعام لم يعد موضع اهتمامه الأكبر.

قال فرديناند مغتبطًا " سعيد، لقد نقص وزنك هذا الأسبوع مرة أخرى .... ووفقًا لوعد أبيك، هذا يعنى جائزة. ما أفضل شيء تريده فى هذه اللحظة".

" مكرونة"، قالها الأمير الجائع وهو يصك أسنانه.

وصك نائب القنصل أسنانه هو الآخر وقال " عندما كنت فى سنك كنت أعيش فى إيطاليا . وقد تعلمت أنا أيضًا أن أحب المكرونة. تعال معى إلى البيت ، وسوف نعد المكرونة للعشاء.

وعلى أطباق المكرونة التى يتصاعد منها البخار، مع الزبد والجبن المرشوشين فوقها، وطدا تمامًا صداقة ستدوم إلى الأبد. وفقد سعيد مزاجه الجاف، وامتص شيئًا من روح الدعابة والبشاشة لدى مدرسه، وتعلم كيف يتحدث بسهولة وبجودة.

وبعد عامين قضاهما ديليسبس فى مصر، تفشى وباء الكوليرا الآسيوية فى كل من الإسكندرية والقاهرة، وهما عاصمتا مصر. ولحسن الحظ كان من بين المشروعات العامة لمحمد على طريق غير مرصوف يربط بين المدينتين، ولذلك كان بالإمكان

الوصـول من إحداهمـا إلى الأخرى فى وقت قصيـر. وبدأ نائب القنصل العمل فوراً لبناء مستشفيات، والحصول على العقاقير والأمصال للضحايا وعائلاتهم. بل إنه حول القنصلية نفسها إلى مستشفى، وقام برحلات مستمرة ذهابًا وإيابًا من الإسكندرية إلى القاهرة. واستخدم قدراته الاقناعية غير العادية لاقناع المصابين المرعوبين للغاية بأنه من الأفضل لأحبائهم أن يبقوا فى مستشفى الأمراض المعدية Lazaretto.[١٨] ، حيث يمكنهم تلقى العلاج السليم والحصول على الأدوية الصحيحة، وهذا أفضل من البقاء فى البيوت وتعريض أفراد العائلة الآخرين للعدوى. وعندما استسلم الأطباء قائلين بأنه لا يمكنهم القيام بمزيد من العمل، نهض فرديناند ممسكًا بزمام الأمور، حيث كان يجلس إلى جوار أسرة المرضى، يطمئن اليائسين ويشجعهم ويعطيهم الأمل. وذات مرة كان فى القاهرة ووجد اثنين وأربعين رجلاً فى غرفة واحدة فى مستشفى مزدحم للأمراض المعدية، حيث رفض الأطباء أنفسهم دخول الغرفة. وبنظرة مليئة بالازدراء للأطباء الرافضين، دلف إلى الغرفة بنفسه، وأخذ الأدوية والملابس النظيفة إلى المرضى والمشرفين على الموت.

وعندما تبدد الوباء ، وهدأت مصر مجدداً، أشادت الصحافة المصرية بالشاب فرديناند ومنحته الحكومة شارة شرفية.

وذكرت الصحيفة المصرية "أنَّ" القنصل الفرنسى الشاب أظهر شجاعة وإخلاصًا يستحق التكريم لتميزه ونشاطه بلا كلل إلى حد التهور أحيانًا، وكان مهتمًا بأن يرى كل شيء بنفسه، ينحنى فوق أسرة المشرفين على الموت، يسأل ويواسى ويسعف".

نشاط وعمل متواصل وتهور – كانت هذه هى الخصال التى ميزته دائمًا، والتى كانت ضرورية للإنجاز العظيم الذى تم لاحقًا.

ومنحته فرنسا وسام الجدارة والشرف من طبقة "فارس" Chevalier of the.[١٩] ، Legion of Honor لجهوده خلال الوباء ، وحتى الوزير البريطانى فإنه أخبر المدعوين

إلى وليمة عامة على شرف ديليسبس بأنه " لم ير مطلقًا مصداقية أكبر من هذا الممثل الشاب لبلده. وفرنسا تستحق التهنئة لأن لديها رجالاً على شاكلة ديليسبس في خدمتها".

لم يكن فرديناند قد بلغ الثلاثين عامًا من عمره بعد. إنه لم ينس أبدًا توصية عمه بارتلمى " تذكر أن العالم وطنك ولكن فرنسا هى حبك". وسيظل هذا شعاره إلى الأبد.

إن حبه الطبيعي للناس جعله يفهم جميع ذوى المناصب، بما فيهم الوالى نفسه الذى لم يكن شخصية عادية.

كان محمد على آنذاك منشغلاً بتوسيع رقعة الإقليم المصرى عن طريق الغزو، بأمل أنه قد يستطيع فى آخر الأمر أن ينسلخ عن الإمبراطورية العثمانية والحكم التركى، جاعلاً من مصر دولة مستقلة.

وقد زود أسطوله برجال شباب من بيت لحم Bethlehem وأرسلهم إلى سوريا فى حملة غزو. واحتج العالم المسيحى بأكمله، وليس أهالى بيت لحم فقط، على تجنيد الشباب المسيحى للقتال فى معارك ضد الكفار. وفى النهاية جاء آباء هؤلاء الشبان إلى الإسكندرية والتمسوا من ديليسبس مساعدتهم.

ولكن عندما اقترح نائب القنصل إعادة الشباب الفلسطينى إلى بلده، رفض محمد على أن يستمع إليه. إنه كان يقاتل فى حرب، وأصر على أن سفنه الحربية ينبغى أن تزود بالرجال بوسيلة أو بأخرى. كانت فلسطين تحت الحكم المصرى، ولا يوجد شيء آخر يمكنه فعله إذا ما أراد أن يكسب الحرب السورية. وفى النهاية أقنعه ديليسبس بأن يقبل إرسال عدد قليل من الأولاد إلى ديارهم - وليكن خمسة أولاد فى الأسبوع. وهذا قد يحافظ على مسيرة الأسطول ، ولكنه سيخفف أيضًا من التوتر فى بيت لحم. ولكنه كان مخطئًا فى ذلك. إذ عندما رأت نساء بيت لحم عددًا قليلاً من الرجال يعودون إلى موطنهم، فى الوقت الذى كان فيه أبناؤهن وأزواجهن لا يزلن

رهن الاستعباد، علا نواحهن أكثر مما كان. وسرعان ما أصبحت حياة نائب القنصل بائسة بسبب حاملى العرائض.

وفى صباح أحد الأيام ذهب فرديناند إلى القصر فى ملابس مهلهلة وممزقة، وأسمال بالية متدلية مكونة من قميص ومعطف، ولا تشبه مطلقًا ملابسه الكاملة المنمقة - ونظر إليه الوالى مندهشًا - من المؤكد أنه واجه حادثة رهيبة وهو فى طريقه إلى القصر.

وسأله الباشا " ماذا حدث ؟ من فعل بك هذا يا فرديناند؟ "

أجاب ديليسبس بحزن " أنت يا سيدى".

قال الباشا " أنا؟ "

هز ديليسبس رأسه قائلاً "نعم" . الأيادى الناهشة لأصحاب العرائض المتوسلين من بيت لحم هى التى أوصلتنى فى النهاية إلى هذه الحالة. وإنها غلطتك بالكامل.

إننى لن أرى مطلقًا نهاية لسوء الحظ هذا طالما أنك ترفض تسريح أكثر من خمسة مجندين فى الأسبوع".

إنه لون من الدعابة أمتع الباشا. ألقى رأسه إلى الخلف صائحًا منتشيًا وجسده الضخم يهتز. وصرح فى النهاية قائلاً " ولكن لا يمكننا أن نسمح بذلك. سنعمل على إرسال الأتباع المساكين إلى موطنهم فى بيت لحم بينما تحتفظ أنت بملابسك على جسدك".

وبقى فرديناند فى مصر ست سنوات - وهى مدة تبلغ ضعف المدة المعتادة فى دورة العمل. ولكنه منح إجازة للعودة إلى موطنه فى نهاية الثلاث سنوات الأولى. لقد كانت أكثر إجازة حصل عليها من حيث الأهمية.

الفصل السادس

بين الحب والحرب

عندما عاد فرديناند إلى باريس، وجد كل أصحابه شغوفين لجعل إجازته مبهجة ومثيرة. لقد كان ذا طابع مميز فى الصداقة، كان دافئًا وجذابًا وفكاهيًا، كما أنه جاء ومعه أخبار من دول البحر المتوسط. وأمضى أسبوعين فى باريس. إنه شاب أعزب فى الثلاثين من العمر يتسم بطبع الملاطفة، لفحته شمس مصر، لديه العديد من القصص عن الباشا وبلاطه وأبنائه الثلاثة عشر.

وفى نهاية الأسبوعين ذهب إلى آنجى Angers لزيارة والدته. وقد سرت لأنها كانت قلقة بشأنه بسبب غزو بيته، ولكنه لم يعرف أنها فى النهاية قررت بهدوء أن تفعل شيئًا ما بالنسبة إلى حالته.

وكان لدى السيدة ديليسبس، التى تنتمى إلى عائلة إسبانية نبيلة من مونتيجو، جارة كانت معجبة بها أيما إعجاب وهى السيدة ديلامال. وكان زوج السيدة ديلامال محاميًا، ولديهما ابنة فى الثامنة عشرة من عمرها اسمها أجاثى. وكانت أم فرديناند معجبة للغاية بالفتاة الشابة، وتحدثت معها كثيرًا وبشكل مطول عن ابنها اللامع فى مصر.

كما أن الوالدتين الفرنسيتين تحدثتا معًا - مثلما تفعل الأمهات الفرنسيات - حول إمكانية الجمع بين ابن ديليسبس وابنة ديلامال. وستبحثان فى الأمر على الأقل

عندما يلتقى الشاب مع الفتاة مع تمنى حدوث الأفضل - هذا الأفضل، كما خططت الوالدتان - هو أن يصبح الشاب والفتاة صديقين، يستمتعان معًا بتبادل الرسائل أثناء غياب فرديناند، وذلك إلى أن تكبر أجاثى بما فيه الكفاية للتفكير فى الزواج، وإلى أن يحضر فرديناند إلى الوطن فى إجازة.

وعلى أية حال، فقد تقدمت خططهما إلى الأمام بأسرع مما كانتا تتوقعان. إذ لدى فرديناند أسلوب لرفع درجة حرارة أية أحداث تهمه. فقد ظهرت أجاثى مصادفة فى غرفة استقبال ديليسبس، وتم تعريفها للابن المميز. ومنذ تلك اللحظة، وقعت تحت تأثير سحره وجاذبيته. وأصبح هو بالتالى أكثر جاذبية، وأمتع كلامًا، وأشد سحرًا عن المعتاد.

وبعد بضعة أيام قليلة فقط - كانت إجازته تشرف على الانتهاء، ولم يتبق أمامه الكثير من الوقت - وسألها أن تتزوجه. لقد رغب فى أن يصطحبها معه عند عودته إلى مصر. وكانت بدورها شغوفة بالذهاب معه مثل شغفه بأن تكون معه. ولكن والديها لم يحبذا هذه العجلة. فأجاثى كانت أصغر من أن تسافر بعيدًا عن الوطن بهذه السرعة. وكانت السيدة ديلامال مصرة على ذلك وقالت " امنحها وقتًا كافيًا حتى تكبر وتكون عندئذ أفضل زوجة نتيجة لذلك". كان فرديناند يكبرها باثنتى عشرة سنة . يجب أن تكون متأكدة من مشاعرها القلبية. فإذا كان حبها حبًا حقيقيًا ، فإنها تكون أكثر قوة على الانتظار.

وعاد فرديناند إلى مصر بنفور لأن أجاثى ليست معه. ولم يقر مطلقًا بالحكمة فى مبررات حماة المستقبل. ولمدة عامين لم يعرف هو وأجاثى أحدهما الآخر إلا من خلال الخطابات. ثم منح نائب القنصل إجازة مرة أخرى - إجازة للعودة إلى الوطن من أجل الزواج. وتزوجا يوم الحادى والعشرين من ديسمبر عام ١٨٣٩.

واكتشف ديليسبس أنه لم يقترن بزوجة غير عادية فحسب، بل أصبح لديه حماة غير عادية أيضًا. وقد برهنت السيدة ديلامال أنها أفضل صديق عرفه فى حياته.

ومن مصر ، ذهب آل ديليسبس إلى برشلونة فى إسبانيا، وهى الدولة الأصلية لأم فرديناند. ووصلوا هناك فى الوقت الذى نشبت فيه الثورة الكارلوسية Carlist .[٢٠] ، إنه وقت الدبلوماسية شديدة الحساسية، لأن فرنسا وإنجلترا، كالمعتاد تتخذان مواقف معاكسة فى المعارك السياسية. وتذكر ديليسبس أحد دروس تاليران وهو أن الشخص الدبلوماسى فى الخارج يمثل دولته، ولكن لا يمثل هذا الحزب السياسى أو ذاك.

ورفض الانحياز إلى أى جانب فى الاضطراب الإسبانى، وحتى عندما زادت سخونة المواقف وأصبحت الحرب أمرًا محتمًا، كان رده على المطالب الفرنسية والإنجليزية وعلى أى الجانبين يقف ، هو الرد ذاته دائمًا " إننى أقف إلى جانب تحالف بريطانى – فرنسى".

لقد كانت فترة حرجة بالنسبة إلى أى زيجة جديدة – وكانت السفارة تقع فى منتصف الطريق بين المقرين الرئيسيين للفصيلين المتحاربين، وفى مواجهة خطوط نيرانهما مباشرة. وفى الغالب فإن عروسًا فى عمر العشرين قد تحزم أمتعتها وترحل إلى بيت أمها عند سماعها طلقات النيران خارج نافذتها. وقد حاول ديليسبس إقناع أجاثى بأن تفعل ذلك، ولكنها أصرت على أن تبقى بجانبه. إذ كان بإمكانها أن تبقى إلى جانبه وسط التراشق بالنيران، فإن الأمر لن يكون ملائمًا مثلما يكون صعبًا. إن معظم الوقت كان الزوج يقضيه فى واجباته الوظيفية مما جعل من المحتم عليها أن تواجه الخطر بمفردها.

كان فى برشلونة عديد من القوميين الفرنسيين، وكان ينبغى حمايتهم من النيران الإسبانية. كما كان من الضرورى على ديليسبس أن يسير عبر الشوارع المعرضة للنيران ليرشد المدنيين إلى الأماكن الآمنة. وكانت أصوات المدافع تسمع عن قرب، وكانت تشتد بشكل مخيف أثناء غيابه عن البيت. ولم تكن العروس الشابة على يقين بأن زوجها سيعود. وقد أمر ديليسبس بأن تكون بارجة حربية فرنسية فى

الانتظار قرب الشاطىء ومستعدة للإبحار إلى فرنسا إذا ما طلب ذلك، وذهب إليها جميع القوميين الفرنسيين فى برشلونة، وحتى بضعة من المواطنين الإسبان الخائفين وجدوا فيها ملاذًا آمنًا تحت العلم الفرنسى.

ولكن أجاثى رفضت أمان البارجة طالما أن زوجها باق فى المدينة. ولا شك فى أنها كانت مرتعدة. إنها لم تر مطلقًا هذه الأمور المرعبة من قبل. بيد أنها كانت هادئة ظاهريًا، وقد سر فرديناند بشجاعتها. وعندما انتهت الحرب كتب عنها كلاهما إلى السيدة ديلامال، كل منهما يشيد بشجاعة الآخر. وقد جعلتهما هذه التجربة أكثر التصاقًا عن ذى قبل.

قال فرديناند فى رسالته إلى أم أجاثى:

" إن عزيزتك أجاثى لؤلؤة بين النساء، وأؤكد لك أننى أقدر للغاية مناقبها ومشاعرها فى خضم هذه الظروف الشاقة، حيث كان من الضرورى أن أستجمع كل مواهبى، وحيث لم أستطع على الإطلاق أن أكون واثقًا من حريتى فى العمل، كان لدى زوجة تشبه معظم اللواتى شاهدتهن هنا".

(على الرغم من كل شىء، فالزوجات الخائفات بشدة كن يأتين إليه بمخاوفهن، أما أولئك الزوجات اللواتى اتسمن بالشجاعة مثل أجاثى فلم يحضرن إلى السفارة).

" لقد تحملت ببطولة قصوى التجارب التى كان ينبغى علينا أن نمر بها. لقد أدهشنى رضاها وبشاشتها فى الظروف التى كنت مجبرًا فيها على تركها للقيام بواجباتى التى عرضتنى لمخاطر عظيمة. لم تقل أى شىء مطلقًا ، ولم تظهر أى مشاعر قد تمنعنى من القيام بما كان يجب على القيام به".

ولابد من أن ذلك كان صعبًا عليها أكثر مما تصوره زوجها، لأن ديليسبس كان قد اعتاد على الانغماس بشدة فى المخاطر، كما كان يفعل عندما كان يقتحم المحيط للقيام بسباحة منعشة. أو ربما كانت هذه الخاصية الفريدة هى التى جعلت الأمر يبدو

أكثر سهولة. كان لديها الثقة ذاتها بأنه سيعود مثلما كانت واثقة أنه لم يغرق أثناء السباحة.

وما كانت أجاثى أقل فخراً بزوجها ، فقد كتبت : " هذه الثورة أظهرت كم هو رائع. الجميع أحبوه وأعجبوا به. قال الجميع أن الفضل يعود إليه فى منع الهجوم بالقنابل حتى الآن. وأصحاب السلطة يثقون فيه. وكل ما يطلبه من المجلس العسكرى الإسبانى الجديد Junta يقدم إليه.

وحيثما يظهر يقولون " قنصل فرنسا! وكل من كان يفسح له المجال".

ولابد من أن السيدة ديلامال ابتسمت عندما كانت تقرأ الرسالتين ياله من ارتباط ناجح خططت له مع الكونتيسة ديليسبس.

لقد تقاسم فرديناند وأجاثى المغامرات فى أماكن أخرى – مدريد وروما. وكان على أجاثى أن تنجب لفرديناند الأولاد – خمسة من الأولاد ، ولكن ثلاثة منهم فقط هم الذين عاشوا واجتازوا مرحلة الطفولة.

وبعد ذلك ، ومع التزايد الشديد لقوة الانهيار الجليدى، بدأت المصائب تنصب على رأس فرديناند ديليسبس. وبعيداً عن هذه المآسى الشخصية، أوشكت قناة السويس على البناء.

الفصل السابع

مرحلة حرجة

كان تعيين ديليسبس فى بعثة خاصة إلى روما أمراً عرضياً على الأرجح.

وحدث أمر عرضى آخر، ولكنه غير سعيد، إذ قامت الحكومة الفرنسية غير المستقرة – مرة أخرى – بخلع الملك عن العرش، وانتخاب رئيس للدولة عام ١٨٤٨، حيث أصبح لويس نابليون رئيساً للجمهورية الثانية.[٢١] ،

ومرة أخرى أدى تغيير الحكومة إلى استدعاء المسئولين الفرنسيين فى الخارج إلى الوطن للحصول على التعليمات وإعادة التعيينات.

وفور وصل ديليسبس إلى باريس، ذهب مباشرة إلى وزارة الخارجية للإعلام بوصوله – كان الشتاء فى أواخره، ولكن أشعة الشمس فى باريس بدت وكأنها تنبىء بقدوم الربيع. إنه لأمر جيد العودة إلى الوطن مجدداً، حتى لو كان هواء باريس أكثر برودة من هواء إسبانيا عندما غادرها ديليسبس.

وعلم فى وزارة الخارجية أن وزير الخارجية كان فى الجمعية العمومية حيث كانت قد وصلت للتو أنباء مزعجة من روما. وقرر ديليسبس أن يذهب إليه هناك. ربما يكون أمراً جيداً أن يستمع مرة أخرى لمناقشات الجمعية العمومية، لاسيما وأن مناقشات هذه المرة من المأمول أن تكون أكثر إثارة.

كانت إيطاليا بعد غزوها من جانب نابليون قد قسمت إلى جمهوريات صغيرة. ولم يكن ذلك من تخطيط نابليون. وفى ظل حكم نابليون جعلت روما نفسها جزءًا من الإمبراطورية الفرنسية.

ولكن روما الآن أصبحت جمهورية، ومؤخرًا فقط استولت عليها جماعة من الثوريين فى شكل حكومة ثلاثية . Triumvirate.[٢٢] ، ونفى البابا إلى جاييتا Gaeta تحت الحكم النمساوى، حيث كان الثوريون لا يرغبون فى مشاركة الفاتيكان لهم فى هذا الاستيلاء.

بيد أن فرنسا لم تكن راغبة فى أن ترى النمسا مأوى لبابا روما. وفى الحقيقة فإنها لم تكن تريد تدخل النمسا فى إيطاليا مطلقًا. قد يكون هناك انقسام فى فرنسا حول ما إذا كانت تقبل الجمهورية الرومانية الجديدة، أم تقبل خطط كارلو ألبرتو لتوحيد كل إيطاليا .[٢٣] ، ولكن فرنسا كانت متحدة بالكامل حول الرغبة فى أن تظل النمسا بعيدة عن إيطاليا، ولذلك عندما فشلت خطط كارلو ألبرتو، مع النمسا المنتصرة، أرسلت فرنسا إلى إيطاليا قسمًا من القوات الفرنسية من الشباب المكلفين بخدمة العلم لمجرد البقاء خارج روما ومراقبة التطورات. هذه القوات ، التى أعلنت عن نفسها بأنها صديقة والتى أرسلت فقط لحماية إيطاليا من النمساويين، كانت تحت قيادة الجنرال أودينو.

ولم تكن لدى مازينى .[٢٤] ، الثورى أى رغبة بعد لوجود قوات فرنسية أكثر من عدم رغبته فى وجود قوات نمساوية فوق التراب الإيطالى. وقد أمر القوات بالرحيل. ولكن بدلاً من ذلك قام الجنرال أودينو، بمبادرة خاصة منه ولكن بالموافقة الضمنية لدولته ، بدخول روما لمحاولة أخذ المدينة، إلا أن قواته وجهت بمعارضة، ليس فقط من جانب القوات الجمهورية، بل من جانب مواطنى روما أنفسهم الذين يحاربون لإنقاذ وطنهم ، إلى حد أنه أجبر على التراجع.

هذه هى الأنباء التى كانت تستمع إليها الجمعية العامة.

ماذا ينبغى على فرنسا فى الخطوة التالية لاسيما فى موقف كان حساساً بالتأكيد؟

كانت جميع أنواع المقترحات، الحكيمة والحمقاء ، ولكن بدون قرار، عندما جلس ديليسبس فى قاعة الزوار، وقد لاحظ أحد أعضاء الجمعية وصوله، وكانت رؤية وجه الكونت المبتسم قد أوحت له بفكرة. ربما يستطيع هذا الرجل "ديليسبس" أن يذهب إلى روما ويحصل على تسوية سلمية للخروج من الموقف. وخاطب الجمعية مقترحاً الفكرة على الأعضاء.

واقترح السيد سنار " Senard إذا ما أرسلنا رجلاً إلى روما، دون أن نسبب أى أزمة فى بلدنا، بحيث يمكن أن نعتمد عليه، فإننى أشعر بقناعة بأن المسألة يمكن ترتيبها. إننى لا أعنى القول بأن الكونت جمهورى متحمس Fervid، ولكنه خدم وطنه فى الخارج بشكل جيد دائماً، دون أن يشغل نفسه بالسياسة الداخلية فى الوطن. وإذا ما قبل المهمة، فإنه سينجزها بكل ثقة.

وقد وافقت الجمعية على اقتراح السيد سنار، وكان هناك نوع من الارتياح لأى أمل فى التوصل إلى حل، وخلال ساعات قليلة كان وزير الخارجية يطلب من القنصل العائد حديثاً أن يغادر بلده مرة أخرى. وكان ذلك بالطبع نوع الأشياء الأكثر تفضيلاً لدى ديليسبس – المناورة السياسية لحفظ السلام وتجنب الحرب. وعندما طلبت منه الموافقة، أجاب بكل صدق:

" إذا اقتضى الأمر ، يمكننى المغادرة الساعة".

ولحسن الحظ كانت هذه العجلة غير ضرورية ، ولم تمض بضعة ايام حتى أعطى تعليمات بدت له عامة وغامضة. وتم إعلامه بأن " عليه أن يخلص فوراً ولايات الكنيسة من الفوضى التى عمت فيها، وأن يضمن بأن إعادة تأسيس السلطة الحقيقية لن تتأثر، ولن تتعرض للمخاطر فى المستقبل بأى هيجان رجعى".

وكان عليه أيضًا أن "يتجنب السماح للرجال الذين هم فى السلطة فى الوقت الحالى فى الإمارات الرومانية أن يفكروا فى أننا ننظر إليهم باعتبارهم الحكومة الحقيقية، لأن ذلك قد يعطيهم قوة معنوية يفتقدون إليها حاليًا".

وقد قرأ لويس نابليون الأوامر بنفسه عندما ذهب إليه ديليسبس ليودعه. وعلق على ذلك بقوله " تعليماتك تبدو غامضة ومتناقضة يا سيدى". ولم يقل ديليسبس شيئًا، على الرغم من أنه يوافق على ذلك فى قرارة نفسه.

ولكن هذا الغموض الشديد بدا له حسنًا، حيث جعله حرًا فى التصرف بالشكل الذى يراه أفضل عندما حان الوقت.

إن قصة ما حدث فى روما هى قصة حكومة تحاول أن تكون مع كل أطراف الموقف الشائك فى نفس الوقت. وببساطة ، فإن فرنسا لم تحدد بشكل واضح الطريق الذى ستسلكه. وبينما سمح لديليسبس أن يجرى مفاوضات مع الثوريين، كانت الحكومة فى الوقت ذاته تؤيد مفاوضات سرية أخرى يتولاها الجنرال أودينو فى الاتجاه العكسى تمامًا للمفاوضات التى كان ديليسبس يظن أنه يجريها. وفى اللحظة التى اعتقد فيها ديليسبس أنه توصل إلى تسوية سلمية، تلقى رسالة موجزة من مكتب باريس تقول "عد إلى الوطن فورًا".

لقد اتخذت فرنسا قرارًا فى النهاية. إن ديليسبس يقوم تقريبًا بعمل تعويقى. ووصل الأمر إلى النقطة التى تعنى بالتأكيد إما شرف فرنسا . أو شرفه هو . لقد كان يكرس وقته وجهده من أجل فرنسا . وقد اتهم بأنه تمادى فى صداقته للثوريين، كما اتهم بأنه لم يطع تعليمات دولته. وكان يجب أن يحاكم لعصيانه الأوامر. وفى المحاكمة أحضر متهموه من ملفات وزارة الخارجية تعليمات زعم أنها أعطيت له عند سفره، والبنود المهمة فيها كانت قد كتبت بعد مغادرته إلى روما لتعزيز الاتهام بعصيان الأوامر. ولم تكن هذه البنود فى الأوامر الأصلية التى أعطيت له.

لقد أدرك مغزى كل ذلك. لابد من تخفيض رتبته، وأن يخدم طوال ما تبقى من حياته فى مواقع بائسة بلا أمل فى الترقى أو التقدم. وفى فورة غضبه قدّم استقالته. ولكن السرعة التى قبلت بها الاستقالة فاجأته. ومن الأفضل أن تنتهى المشكلة ويتم التعامل معه بأسرع ما يمكن.

ولكن ديليسبس اصبح بعد الاستقالة فى سن الأربعين بلا عمل. لقد سلبت منه المهنة الوحيدة التى تأهل من أجلها. لقد وهب حياته لخدمة فرنسا، وفرنسا قد خذلته. كان الإخفاق أشد وطأة من فقدان الثقة. لقد أصبح فؤاده خاويًا وفارغًا وبلا طموح فى أن يكون غير ذلك.

وظلت أجاثى بجانبه خلال المحاكمات الطويلة فى الطقس الحار. وحاولت السيدة ديلامال أن تساعده فى أن يجد نفسه فى مهنة أخرى. فتنازلت له عن إدارة أطيانها الموجودة قرب بيرى .Berry غير أنه لم يجد أى متعة فى عمله الجديد، لأنه شعر بأن هذا العمل قدم له على سبيل الصدقة. وقال " إننى لا أستحق يا أمى الجميلة. إننى مجرد سجين كرمك ! لكنه استمر فى العمل، وقام بتقسيم الأراضى إلى مزارع نموذجية صغيرة.

وبدا لأجاثى بأن هذا العمل غير مناسب له. وقالت لنفسها " لا يمكن للمرء أن يحول دبلوماسيًا إلى مزارع ..... إن هذا يشبه تحويل خيوط من حرير إلى حبل لخنزير".

وفى إحدى الأمسيات شاهدته يلتهم بشوق الأخبار الخارجية فى الصحف، وفجأة أخذ يتنهد بشدة، ثم ترك الصحيفة تسقط فى حجره. فذهبت نحوه بهدوء، وأخذت الصحيفة بعيدًا عنه ، وأحضرت له قبعته، وقالت: " تعال لنتمشى معًا ..... لقد مضى وقت طويل منذ أن تمشينا معًا آخر مرة على شاطىء النهر".

لقد تذكرت جاذبية الأنهار بالنسبة إليه. إنه ينظر إليها وكأنها طرق للسفر من مكان إلى آخر، وممرات تجارية ، ومسالك للهجرة. وفى كل دولة عاشوا فيها كان يطرح الأسئلة ذاتها حول كل نهر.

" إلى أين يجرى؟ " و " من أين ينبع؟" " ،من يعيش على امتداد المجرى الذى ينساب فيه؟".

وبدأت أجاثى تتحدث إليه حول الأنهار والمحيطات . لماذا لم تفكر فى هذا من قبل؟ القناة القديمة ! القناة التى وصفها هيرودوت التى ربطت فى يوم ما النيل مع البحر.

" فرديناند، ليس هناك أى مبرر لأن تشعر حتمًا بأن حياتك بأكملها قد انتهت. إنك لا تزال رجلاً شابًا. ويمكن أن يكون لك مستقبل أكثر نصاعة من ماضيك".

" حمقاء، يجب أن تفكرى بشكل أفضل من ذلك. أى مهنة تعتقدين أننى سأجد فيها مستقبلاً أكثر إشراقًا؟"

ولم تجب أجاثى عن هذا السؤال فوراً. وسارا إلى جانب نهر السين وراقبا الأضواء وهى تخترق الظلام الحالك. وأدت صلاة صامتة آملة فى أن تكون الكلمات التى ستقولها الآن هى الكلمات الصحيحة بالنسبة إلى هذا الرجل الذى أحبته.

" أتذكر القناة القديمة فى مصر؟ كيف كنت معتاداً على أن تأخذنى لنركب الجياد معًا، وننظر إلى الجدران القديمة؟ إننى لم أرك منتشيًا أبدًا مثل نشوتك عندما كنت تتصور إمكانية عمل قناة عبر السويس. أليس هناك سبيل ما لإقناع شخص ما بأن هذه القناة يجب أن تنشأ؟ طالما أن لديك المخططات والرسومات. هل يمكنك أن تعيد العمل فيها مرة أخرى؟

أعتقد أننى يمكن أن أجدها لك".

رمقها بسرعة و لم يحر جوابًا ، وفجأة صارت خطوته أكثر نشاطًا، ورفع رأسه عاليًا، وبدت ملامح البهجة القديمة تعود إليه من جديد. وكان يمسك بيده ذراع أجاثى، فجذبها نحوه لتكون أكثر قربًا منه.

وتكلم فى النهاية وقال " إنك حقًا ملاكى الحارس. ولكن طبعًا، لماذا كنت أعمى إلى هذا الحد؟ إنها المرة الأولى فى حياتى يكون لدى فيها وقت فراغ للعمل على تلك المخططات. لماذا لم أفعل ذلك بشكل أسرع؟

وأصبح ديليسبس مختلفًا بعد ذلك؟ مشغولاً بكتبه وأوراقه، يكتب مئات الخطابات لمهندسين فى مختلف أرجاء العالم، يعيد قراءة الكتب القديمة التى ذكرت القناة التى ربطت بين النيل والبحر.

وعلى الأرجح فإنه كان يجمع هذه الكتب لإلقاء محاضرة عن الموضوع، ولكن فى ذلك الحين فاجأته أسوأ صدمة واجهته فى حياته.

الفصل الثامن

قنوط وأمل

عادت العائلة إلى باريس فى أوائل الخريف بعد قضاء فصل الصيف فى الريف، حيث سيرجع الأطفال إلى المدارس. وفى يوم من الأيام الأولى من بداية الدراسة رجع الابن الأصغر إلى البيت بوجنتين ملتهبتين مع ارتفاع فى حرارة جسمه. وضعته أجاثى على السرير، وأرسلت تستدعى طبيب العائلة. إنها الحمى القرمزية. وفى غضون أسبوعين كان الولد قد مات.

والتفت كل من أجاثى وفرديناند أحدهما إلى الآخر فى محنتهما. حتى الحزن الذى رآه كل منهما فى عينى الآخر جعلهما أكثر قربًا من حيث مشاعر الحب والتفاهم.

وبعد بضعة أسابيع مرض الابن الأكبر "تشارل" بالمرض ذاته. ومرة أخرى قبعت أجاثى فى جانب سرير ابنها تلاحظه، ليلاً ونهارًا، وكانت الملاحظة هذه المرة هى الأصعب، لأنها كانت مشوبة بالخوف. يجب ألا يسمح بأن يلحق شارل أخاه الأصغر! وحضرت مرة أخرى الممرضة ذاتها التى ساعدتها عند مرض الطفل الآخر، وتناوبتا الملاحظة والانتظار ولكن تشارلز كان يفضل والدته دائمًا، وغالبًا ما كان يرفض السماح للممرضة بمساعدته.

" إنك ترهقين نفسك". قال فرديناند ذلك لأجاثى ملاحظًا الدوائر القاتمة تحت عينيها. وكان متعجبًا من أنه قد مضى عليها وقت طويل منذ آخر ليلة نامت فيها.

ابتسمت وربتت على ذراعه وهزت رأسها. وقالت: " إننى بخير . إنه يريدنى . لن يأخذ دواءه من أى شخص آخر، ويجب أن يتناول الدواء".

ولكن زوجها ظن أنه يعرف لماذا يبدو فمها مطبقًا ومبللاً، ولماذا تبدو نظرة غريبة فى عينيها الزرقاوين. وأخذ يدها فى يده وقال "أجاثى، إن كنا قد فقدنا ابنًا واحدًا، فهذا لا يبرر أن تسمحى لنفسك أن تتخيلى حدوث ذلك مرة أخرى. هذا الخوف، أكثر من مرض تشارلز ، يجعلك تبدين وتشعرين بأنك مجهدة للغاية على هذا النحو.

لابد أن تستريحى وأن تتوقفى عن الخوف إذا ما أردت أن تكون لديك قوة ستحتاجين إليها لا محالة عندما تذهب الحمى ويتحسن شارل ويكون فى حاجة إلى التنزه".

" إننى أعرف" قالت ذلك وطبعت قبلة على خده وهى تستدير لتعود إلى غرفة المريض، وأضافت "يقول الطبيب إنه يرى بعض التحسن حتى الآن. إننى أريد أن يستمر هذا التحسن".

وسرعان ما ذهبت الحمى، تحول الاحمرار الشديد إلى اصفرار. نام تشارلز، وأكل، ولعب بجنود الصفيح على غطاء السرير. وجلس والده على سريره وسرد عليه قصصًا مدهشة عن مصر وبرشلونة.

وفى صباح أحد الأيام لاحظ فرديناند على الإفطار ارتعاشًا قليلاً فى يد أجاثى وهى تصب له القهوة. عندئذ نظر إلى وجهها وشعر بخوف لم يشعر به من قبل.

سألها " هل تشعرين بأنك على ما يرام كعادتك يا عزيزتى؟"

قالت " إننى أشعر مثل شعورى فى أحر أيام الصيف فى مصر". ووضعت يدها على خدها شديد الاحمرار وقالت " لماذا؟ هل أبدو مختلفة؟"

وقف وضمها بين ذراعيه وقال " تبدين كما لو أنك وقفت مدة طويلة تحت شمس مصر. سآخذك إلى الفراش وسأستدعى الطبيب . وما لم أكن مخطئًا للغاية، فإنك أيضًا أخذت الحمى".

وسأل الطبيب عندما أكد له صحة تشخيصه " هل ستكون بخير يا دكتور؟".

نظر الطبيب بقلق وقال " يمكن أن تتحسن. إنها لم تنم، وتعانى من الحزن، ولم يتبق لديها الكثير من القوة".

وتأمل فرديناند وجه الطبيب وسأله ليتأكد من جديد " هل لديها من القوة ما يكفى كى تفحصها؟ هل هى بخير؟ هل .... هل لا تزال فى حاجة إلى دواء؟ ". إن فرديناند نفسه لا يعرف شيئًا عن المرض.

وأجاب الطبيب " لا يزال الأمر مبكرًا لكى نعرف".

ولكن سرعان ما اتضح الأمر. كانت هناك تعقيدات فى حالتها الصحية، وصارت أجاثى أضعف مع ارتفاع درجة حرارتها أكثر فأكثر. وبقى فرديناند إلى جوار سريرها، يتحدث إليها، ولكنها بدت كأنها تستمع، ولكنه ظل جالسًا يراقبها ويصلى بحماس من أجل أن تتعافى.

وفى أحد الأيام انخفضت الحمى لفترة قصيرة، وابتسمت له وأمسكت بيده، وسألته " ماذا عن القناة؟ هل أرسلت خططك الجديدة إلى السلطان".

إنها كانت تفكر فيه أكثر مما تفكر فى نفسها على ما يبدو. وأمسك ذراعها وضغط عليه وأجاب مبتسمًا " أيدى النيل والبحر المتوسط والبحر الأحمر ممسكة بعضها ببعض الآن - على الأقل فى أوراقى. والمخططات الكاملة ستكون جاهزة لأن أرسلها قريبًا. عليك أن تتحسنى بسرعة حتمًا يا أجاثى.

من يعلم ربما سنجتمع قريبًا فى السويس لكى نبنى القناة؟".

وابتسمت أجاثى ولم تقل شيئًا. ثم قالت بنعومة وبعد صمت طويل "حدثنى عن مصر يا فرديناند".

وأخذ فرديناند يتحدث إليها حتى نامت وهى تستدعى ذكريات الأشياء التى فعلاها فى تلك السنوات الأولى السعيدة من زواجهما. ثم جلس يراقب تنفسها غير العميق. دامع العينين، متمنيًا أن تعود تلك الأيام.

وأتى أمر القدر ولم يكن فرديناند مستعدًا لذلك بعد. لم يصدق أنه فقدها. إنه لم يفقدها فحسب ، بل فقد كل ما تعنيه الحياة بالنسبة إليه، ابنه وعمله. لقد كان هو وأم أجاثى يشعران على الرغم من خطورة مرضها أنها ستشفى . لقد كانت لا تزال شابة، والحياة أمامها ممتدة. لا يمكن أن تنتهى بهذا الشكل.

وعندما انتهى كل شىء، قامت السيدة ديلامال الحكيمة الرقيقة بلفت انتباه فرديناند مرة أخرى نحو بيرى Berry، ورأى فى العمل البدنى الشاق فى الزراعة والتجارة ما يجرده من آلامه. ولكن هذا العمل كان يحذره أيضًا من أنه وأولاده عالة على السيدة ديلامال.

قال لها " إنه يؤلمنى أن أعيش على كرمك .... يجب أن أدبر وسيلة لمعيشة أولادى. من المؤكد أن الأمور ستتغير قريبًا. لقد أرسلت خطط القناة إلى السلطان".

وتابع فرديناند البريد عن كثب، حتى وصل إليه طرد بريدى كبير، وفض الشمع الذى ختم به الطرد بسرعة. إنها أوراق القناة! ولكنه عندما فتح الطرد، ماتت آماله. فقد كان مع الأوراق رسالة رسمية من السلطان.

" أعيد إليك المخططات التى أرسلتها إلى فيما يتعلق بقناة تربط بين بحرين تبنى فى مصر. أى مشروع كهذا لا يبدو مجديًا فى هذا الوقت. لا تستطيع تركيا أن تمنحك امتيازًا فى أرض مصر!".

لكل إنسان طاقته الخاصة لتحمل المتاعب، وعندما تتجاوز الإخفاقات طاقة التحمل، ينهار الإنسان، لاحظت السيدة ديلامال أن زوج ابنتها العبقرى اللطيف يتحول إلى إنسان قانط بلا أمل. كانت هذه واحدة من الصدمات الكبرى العديدة.

قال لها فرديناند " كانت القناة فكرة أجاثى أكثر مما كانت فكرتى فى الحقيقة. ويبدو الأمر كما لو أنهم أهانوها بهذا الرفض. لا يمكنني تحمل ذلك".

استوعبت السيدة ديلامال قوله، وقالت له، " فرديناند، لقد كنت أنظر إليك على امتداد خمسة عشر عاماً باعتبارك ابنى - ابن أفضل مما كنت أتمناه. ألا تسمح لى بأن أطلب من ابنى أن يساعدنى بأن يكون وكيل أعمالى فى الأرض؟ هل كان يشعر بأننى أقدم له إحساناً؟ إننى الآن أطلب منك أن يكون منزل آجنى سوريل، لا شيزناى، معداً لأن ننتقل إليه عندما تبدأ عطلة الصيف للأولاد. سيحتاج شارل إلى أشعة الشمس وإلى هواء الريف بعد مرضه الشتوى هذا. يمكن أن نجد لهم عملاً هناك".

حاول فرديناند أن يفنى نفسه فى العمل. كانت هناك أشياء كثيرة يجب عليه أن يتعلمها لكى تنساب فيما بعد من اللاشعور. وقام طوال الصيف بأصعب أنواع الأعمال اليدوية ، حيث كان يشعر بالألم الحميد للعضلات المجهدة والظهر المتوجع.

قرر فرديناند أن يرسل المخططات هذه المرة إلى مصر. وكتب إلى القنصل الهولندى فى الإسكندرية، وطلب منه أن يقدم المخططات إلى عباس باشا خليفة محمد على .(٢٥) ، وأعيدت إليه مرة أخرى. إذ لم يكن عباس باشا مهتماً بعمل أى إصلاحات أو تحسينات جديدة. وكانت مصر قد قررت منذ فترة طويلة ألا تبنى مثل هذه القناة. فلماذا يغيرون رأيهم الآن؟ واعتقد ديليسبس أنه يعرف مبررات عدة لبنائها - الحقيقة التى ثبتت صحتها وهى أن القناة يمكن أن تبنى فى مستوى تيارات المد والجزر، وأن المحيطات لا تختلف مستويات المد والجزر فيما بينها، وفوق كل ذلك هناك الآن أساليب جديدة لبناء القنوات، ناهيك عن أكثر المبررات أهمية هو النفع العظيم الذى سيحققه العالم من بناء قناة كهذه.

قال فرديناند للسيدة ديلامال " ستبنى القناة يومًا ما". وكان فى قرارة نفسه لا يزال يأمل بأنه سيكون الشخص الذى سيبنيها، وأنه سيبقى حيًا طالما بقى هذا الحلم حيًا فى نفسه.

وفى صباح أحد الأيام، وبينما هو جالس على سطح بيته الذى كان يعيد بناءه، يدق المسامير فى الألواح الخشبية الجديدة للسطح القديم، سمع قرع جرس رجل البريد. ونادى على أحد العمال ليحضر إليه البريد، واستمر فى تثبيت الألواح الخشبية. ووضع له العامل الأوراق والخطابات على حافة السطح. وجلس فرديناند القرفصاء يفض أغلفة الرسائل بأحد المسامير. واحد من هذه الخطابات كان مختومًا بخاتم مصر الأميرى. قرأ الرسالة بإمعان، وانتفض ، وحشر الرسائل الأخرى فى جيبه. ونزل من على السطح ووقف على الأرض، وقال مخاطبًا رئيس العمال " يجب أن أذهب إلى باريس، هناك أخبار مهمة فى هذا البريد".

أخذ فرديناند يستحث حصانه طوال الطريق إلى باريس. يجب أن يخبر السيدة ديلامال. وفى البيت أخذ ينتقل من غرفة إلى أخرى وهو ينادى عليها.

وعندما سمعته أخيرًا وحضرت، ابتسم كما اعتاد أن يبتسم قبل وفاة زوجته، لقد مضى وقت طويل منذ أن رأته آخر مرة وهو يبتسم هذه الابتسامة، وقال:

" سيدتى، أخيرًا ستتخلصين من المتقاعد لديك. لن تكون فى حاجة بعد الآن لإيوائى. لن تستطيعين مطلقًا تخمين ما حدث".

قالت " هل وجدت بعض المجوهرات مخبأة فى أنجى سوريل، بعض المجوهرات التى منحها إياها الملك شارل؟

رد فرديناند " أفضل من ذلك يا صديقتى المحنكة، الولد الصغير السمين محمد سعيد هو الوالى الجديد لمصر. أنا على يقين من أنه سيكون مهتمًا بقناتنا. لقد علمته بنفسى لأن يكون لديه مثل هذا الاهتمام. ويومًا ما يا أمى اللطيفة - وقد اقترب أوانه الآن - سيتحقق حلمنا".

زالت عنه كل علامات الحزن واليأس. وبدأ ينظر بإشراق إلى المستقبل بتوقعات سعيدة.

قال " سأكتب إلى سعيد فوراً"، وجلس إلى مكتبه وفتش عن قلم وورقة.

واقترحت حماته قائلة "أخبرني، إنك لم تعد تعمل فى وزارة الخارجية. وسيكون فى حاجة إلى دبلوماسيين جيدين، ألن يحتاج؟"

تهلل وجه فرديناند وقال " إن الله يقف أخيراً إلى جانبى يا أمى الجميلة ... الآن سوف تبنى قناتى أخيراً! من كان يظن أن يكون سعيد واليًا؟ وعلى الرغم من ذلك فإنه سيكون واليًا جيداً. لديه عقل متفتح - متفتح ولكنه ليس عقلاً لامعًا.

إننى أعرف أنه سيكون مهتمًا بقناتى!".

وبدأ فرديناند الكتابة، ثم رفع رأسه عن الورقة وقال " سوف أذكره بالمكرونة التى أعتدت أن أطعمه إياها. إنه ليدهشنى إن كان هناك أى رجل أكثر سروراً منى بالحظ السعيد لرجل آخر! "

الفصل التاسع

الصدفة لمن يستحق

ذلك الخطاب الذى كتبه فرديناند ديليسبس إلى تلميذه القديم، سعيد باشا، ربما كان الخطاب الوحيد فى التاريخ الذى ترتب عليه بناء قناة عبر " بحرين" عظيمة. وفى هذا الصدد ، على الأقل يمكن الحكم على ذلك بأنه أعظم إنجاز دبلوماسى لديليسبس.

وجاء الرد على الخطاب بأسرع ما يمكن ، إذا ما أخذ فى الاعتبار أنه جاء من مصر على الجمل. لقد كتب صديقه القديم رسالة دافئة ومفعمة بالصداقة، داعيًا فرديناند للمجىء إلى مصر فوراً. وسرعان ما غير الخطاب نظرة ديليسبس إلى الأمور كلية. لقد طرح عن نفسه الإحباط كما يطرح الثوب البالى. وامتلأت رأسه بالخطط من جديد، وهو يعد الترتيبات بشوق للقيام برحلته.

وقال فرديناند للسيدة ديلامال " إننى أفضل الذهاب إلى مصر أكثر من أى مكان آخر. هناك كنا أجاثى وأنا سعيدين. إنه بلد مدهش يا أمى الجميلة، حيث لا يبدو أن شيئًا يموت هناك".

قبل ذلك بعامين، فى الوقت الذى أرسل فيه أولاً خطط القناة إلى عباس باشا، سلف سعيد باشا، كان ديليسبس قد كتب إلى صديقه رايسينيرز Ruyssenaers القنصل العام لهولندا فى مصر حول فكرته العظيمة ، حيث كتب آنذاك:

" إننى أعترف بأن مشروعى لا يزال وراء الحجب، ولا أستطيع أن أخفى عن نفسى أنه طالما أننى الشخص الوحيد الذى يعتقد بإمكان تحقيقه. فإن ذلك يعادل القول بأن تحقيقه محال. والمطلوب لجعل المشروع مقبولاً من العامة هو إيجاد أساس من نوع ما، ولكى نحصل على هذا الأساس هو كل ما أحتاج إلى معاونتك فيه ...... أرسل لكم مذكرة تشتمل على دراساتى القديمة والحديثة، وقد ترجمتها إلى اللغة العربية ... وسوف تشكل رأيك الخاص حول ما إذا كان الوالى الحالى عباس باشا هو الرجل الذى يدرك الفائدة التى تعود على مصر من هذا المشروع، وما إذا كان مستعداً للمساعدة فى تنفيذه".

والآن، وهو على وشك أن يغادر إلى القاهرة، كتب إلى صديقه مرة أخرى يعلمه بقدومه، وطلب منه "لا تقل أى كلمة عن شق البرزخ قبل وصولى".

لقد أراد أن يخبر سعيداً بالمشروع بنفسه. أراد أن يلاحظ وجه تلميذه عندما يخبره بالأمر. وتذكر كيف كان الغلام يظهر على ملامح وجهه بوضوح كل نزعة نفسية وكل إحساس ، وكل فكرة ، وكل تخيل. وسيعرف من وجهه متى يحين الوقت المناسب للإعلان العظيم عن المشروع الذى يعنى المجد والقوة لمصر والثروة الهائلة للعالم.

ولم يكن فرديناند مستعداً للاستقبال الذى قوبل به فى الإسكندرية. فقد استقبله القنصل العام الهولندى واثنان من مساعدى الباشا. ومنذ الوهلة الأولى اعتبر أحد أعضاء أسرة الوالى. وسره التكريم الذى حظى به، لأنه كم عانى من عدم التقدير منذ استقالته من وزارة الخارجية. والآن أصبح يعامل من جديد بأبهة وحفاوة، وليس هناك من أحب الأبهة والحفاوة أكثر منه. وقد سجلت خطاباته التى كتبها للسيدة ديلامال جميع التفاصيل الطيبة، ومنها:

" رست بى الباخرة ليكيرج الساعة الثامنة صباح اليوم فى الإسكندرية. وجاء لتحيتى نيابة عن الوالى كل من صديقى العزيز راسينير وزير البحرية وحافظ باشا، وتوجهت فى عربة البلاط إلى إحدى فيلات صاحب الجلالة .....".

ووصف الفيلا التى تواجه قناة المحمودية ، وهى القناة التى أنشاها محمد على، والد سعيد . وتذكر ديليسبس أنه كان يلاحظ الفيلا أثناء بنائها عندما كان فى مصر منذ عشرين سنة مضت. وما كان ليحلم مطلقًا أنه سيعيش فيها يومًا ما.

كانت الفيلا بيتا فاخرًا، لها قاعة احتفالات ضخمة؛ وقاعة للطعام فى الطابق الأرضى، وغرفة استقبال مشرقة ومشمسة، وفيها أربعة دواوين فخمة مرصوصة على امتداد جدرانها الأربعة، وأربع نوافذ أعلى الدواوين تطل على شارعين مشجرين. والمنازل الشرقية عادة ما تفرش بأثاث متناثر. وتحلّ الدواوين محل الكراسى والأرائك والمناضد. ويجلس الرجال على الديوان إلى جوار بعضهم البعض، يشربون قهوة الصباح. وقهوة الظهر وقهوة المساء أيضًا ، ويتناقشون فى الأمور السياسية أو النسائية أو المتعلقة بالخيول أو المتعلقة بالحرب. ويقرأون وهم راقدون على ظهورهم فوق الديوان، أو يجلسون القرفصاء، يثرثرون ، بينما يقوم خادم بصب أكواب القهوة القاتمة كوبًا تلو الآخر.

وعلى بعد من قاعة الاستقبال هناك غرفة نوم ديليسبس ، وسريره الضخم الفخم مزين بالحرير الأصفر، ومزخرف بالزهور الحمراء، وعليه حاشية مزودة بشراشيب مذهبة ثقيلة. وفى الليل يسحب الحرير الأصفر إلى الخلف، لتظهر الستائر الداخلية من "التول" أو القماش الرقيق الحريرى الشفاف المطرز، لتمنع دخول الحشرات عندما يكون المرء نائمًا (الناموسية).

وفى غرفة التزيين هناك تجهيزات من قطع رخامية، ومناشف ناعمة مذهبة ومزخرفة.

وسرعان ما اعتاد البقاء فى البيت وسط كل هذه الفخامة والأبهة. وأرسل سعيد عددًا قليلاً من أصدقائه المقربين للترحيب بمعلمه السابق، واستفسر منهم فرديناند بدقة عن أخبار صديقه القديم، شغوفًا بالحصول على أية معلومة عن الأشياء التى

يحبها سعيد والتى لا يحبها. إذ كلما عرف أكثر، أدرك بشكل أفضل كيف يكون أسلوب الاقتراب من الوالى للحصول منه على الموافقة على خطط القناة.

وفى ذلك الوقت كانت فكرة القناة مسيطرة تمامًا على حواسه ومشاعره. وكما كان تلميذه السابق مغرمًا بالذكريات ، فإن مشروع القناة فى الحقيقة كان الغرام الذى جاء بفرديناند إلى مصر.

علم من زائريه أن الوالى سيراه بشكل رسمى فى تمام الساعة الحادية عشرة. ولأن علاقاته القديمة مع الأمير الصغير كانت غير رسمية غالبًا، فقد قرر فرديناند أنه من المستحسن له أن يظهر بملابس البلاط ، وقد زين صدره بجميع ميدلياته وأوشحته القديمة، على الرغم من أنه لم يعد يعمل فى وزارة الخارجية الفرنسية. ولكن سعيد يحب ما توحى به الملابس الكاملة من احترام.

وعندما رأى فرديناند صورته المنعكسة فى المرآة، شعر كأنه قد عاد إلى وطنه من جديد بعد غياب طويل. ما أشبه اليوم بالبارحة والأيام الخوالى. لقد رجع أخيرًا إلى عالمه الأسرى! لطالما كان سعيدًا فى مصر.

نحى سعيد بأشكال الرسميات جانبًا واستقبل زائره كصديق عزيز قديم. وجىء بالقهوة، وجلسا جنبًا إلى جنب، يتحدثان ويتحدثان، ويضحكان على النكات القديمة، ويستوعبان الذكريات الماضية.

واستفسر فرديناند " يا صاحب الجلالة، هل كانت السنوات التى مضت منذ أن كنا معًا طيبة بالنسبة إليك، أم كانت سيئة؟".

وأجاب سعيد " سيئة فى معظم الأحيان – ولكن انتهى كل ذلك الآن، وأضاف مبتسمًا " إننى أود مساعدة مصر لتحتل مكانها الصحيح بين دول العالم. ولدى أمل فى أن تساعدنى فى القيام بذلك يا صديقى".

كان ديليسبس متأكدًا فى قرارة نفسه أنه يستطيع أن يفعل ذلك بالتأكيد. ولكن على ما يبدو لم يكن الوقت مناسبًا لذكر الخطة التى يمكن أن تحقق أفضل إنجاز فى هذا الصدد. فأجاب قائلاً " لابد أن للعناية الإلهية حكمة فى وضع أمير - تم تعليمه بعناية فى شبابه، واختير بشدة فى رشده - على رأس أعظم حكومة مطلقة فى العالم، يا صاحب الجلالة". " إن ما يقوله سعيد ستحققه مصر".

ولم ينكر سعيد هذا القول . وكان ديليسبس يلاحظ الوالى بدقة، بينما انحنى الرجل الأصغر سنًا تجاه الوسائد القرمزية للديوان، ومال الطربوش الذهبى اللون قليلاً عن شعر رأسه الأسود المجعد.

وتابع الوالى الحديث " لقد أرسلت فى طلبك يا صديقى، لأن الحاكم يثق فى عدد قليل من الناس. إننى فى حاجة إلى مستشار أثق فيه تمامًا. أنا أحتاج إليك يا فرديناند".

تأثر ديليسبس بشدة من ثقة الرجل فيه. وعقد العزم على ألا يفعل شيئًا فى أى وقت من الأوقات يجعله يفقد هذه الثقة.

وجلس سعيد منتظرًا الرد وقد أغمض عينيه قليلاً، وعدل طربوشه. وأخيرًا قال ديليسبس، وبصوت أشبه غالبًا بقسم الولاء " يشرفنى أن أخدمك يا مولاى ، ولن تندم مطلقًا على أنك طلبت خدمتى"، وانحنى على ركبته أمام الوالى ووضع سيفه كعلامة على التبعية والولاء.

ضحك سعيد وصاح " لا ، لا ، وا ، لا" لا يجب أن تركع أمامى. إنك صديقى الفرنسى العزيز، إنك لا تخدمنى ، إنك هنا لتعلمنى".

وتحدثا ثانية كصديقين قديمين يجددان صداقتهما، وقال سعيد وهو يبدو ناعسًا:

" سأذهب إلى القاهرة فى غضون أيام قليلة. وسوف ألتقى بالناس فى عاصمتى الثانية. سنسافر عبر الصحراء، مع قواتى. هل تذهب معنا، أم تبقى فى انتظار عودتنا إلى الإسكندرية".

فرك ديليسبس أذنه . هل يسمع حقًا؟ أى فرصة يمكن أن تتاح أكثر ملاءمة من أن يتتبع الطريق الذى ستتخذه القناة عبر الصحراء إلى القاهرة؟.

ونظر نحو الوالى مبتسمًا وقال " هل تظن أننى صرت ناعمًا وكسولاً منذ أن تركت مصر إلى درجة أننى لا أستطيع البقاء بضعة أيام على سرج الحصان؟ إذا كنت تظن ذلك فأنت مخطىء. أعطنى حصانًا وسأذهب معك".

وعاد إلى الفيلا تلك الليلة، سعيداً أكثر مما كان لسنوات عدة. وكان الهواء العليل مشبعًا برائحة أزهار السنط القوية. وفكر فى أجاثى وأخذ يدندن لحنًا تركيًا كان قد سمعه فى القصر. وتراءى له أن أجاثى تسير الآن إلى جواره، لأن الموت هنا فى مصر لا يحسب على أنه عدم وجود؟ فمصر هى مهد العالم لا مقبرته !

وفى صباح اليوم التالى دق على بابه سائس خيل البلاط وقال "جلالته أرسل إلى صديقه العزيز هذا الحصان، وقد اشتراه مؤخراً من الجزيرة العربية بناء على اختياره الشخصى. سوف تركبه فى رحلتنا إلى القاهرة، وسوف يركب جلالته معك عند الساعة الحادية عشرة صباح اليوم".

الفصل العاشر

أول الغيث قطرة

كان فرديناند قد قرر قبل أن يغادر فرنسا أن ينتظر الوقت الملائم قبل أن يذكر خطته بشأن القناة المصرية للوالى. كان يعلم أن الوقت الصحيح يعنى الكثير بالنسبة إلى الحصول على موافقة سعيد، ولكن الآن و هو فوق الموقع الذى ستبنى فيه القناة - كما تمنى - لم يكن من السهل أن يبقى سره خافيًا. وكانت الأمور تتداعى بسرعة - ترحيب الوالى، ومركزه كمستشار أميرى، وهذه الرحلة الآن التى ستسمح له بأن يرى مرة أخرى الجدران العتيقة للقناة القديمة. وبدا له أن القدر كان يلعب دورًا فى شئونه، ولابد من أن يكون متأكدًا من أنه يعرف متى وإلى أين كان سيقوده.

لقد أحضر أوراقه ورسوماته معه فى الرحلة. وكان يأمل أن يتحقق من دقتها إذا ما سنحت الفرصة، لكى يتأكد بأن المعطيات الجغرافية والجيولوجية هى كما كان يعتقد على الأقل.

أما التقديرات الحسابية، والرسومات الزرقاء فستأتى فى مرحلة لاحقة عندما تتم الموافقة الفعلية على المشروع.

وسرعان ما أصبحت حماسته تفوق خطته. فقبل أن يتيقن تمامًا مما كان يفعل، وجد نفسه يخبر رفيقه فى السفر، ذو الفقار باشا.[٢٦]، أحد الإخوة الأكبر للوالى، حول ما قام به من عمل، والمعلومات التى جمعها من مصادر متعددة، والآمال التى

كان يتوقعها بالنسبة إلى الطريق التجارى الجديد إلى الهند. وكانت لديه موهبة فى جعل الآخرين يتقدون من شرارة ثقته الحماسية. وحتى فى ذلك اليوم الأول من الرحلة، كان قد كسب مؤيدًا ونصيرًا متمثلاً فى شخص ذو الفقار باشا، الذى كان يرى أيضًا أن مثل هذا المشروع سيجعل مصر عظيمة حقًا فى عيون العالم سواء فى شرق السويس أو فى غربها.

صاح ديليسبس وقال له " فكر ماذا يعنى المشروع للعالم! خط مباشر إلى مكة للمسلمين ومسافة أقصر إلى الهند بالنسبة لأوربا. كيف يمكن أن أجذب اهتمام أخيك؟ ".

سأله ذو الفقار " هل أخبرته؟". أجاب ديليسبس "ليس بعد". وعقب ذو الفقار " افعل ذلك ، سوف يستمع ، إننى متأكد".

كان الوالى قد غادر الإسكندرية قبل بقية الفريق الأميرى بيوم واحد. وكان راكبًا فى عربة غريبة النوع، تشبه الحافلة الكبيرة، ولكنها كانت مجهزة بحيث يمكن أن تحول فى الداخل إلى غرفة نوم فاخرة، والقوات التى رافقته كانت من الحرس الأميرى العسكرى، وكانت تعد للاستفادة المزدوجة من مناسبة تتويج حاكمهم فى عاصمته الثانية بالقيام بمناوراتهم السنوية فى الطريق. ولهذا السبب غادر سعيد مبكرًا.

كانت الترتيبات قد أعدت للآخرين بأن يلحقوا بهم فى أول استراحة على الطريق. وكان من العادة قبل أن يقوم الوالى برحلة، أن يعرف حتمًا أين يمكن أن يتوقف بأمان للراحة والاستجمام طوال الطريق.

على الرغم من أن عقل ديليسبس كان لا يزال يموج بالأفكار حول مشروعه، فإنه لم يذكر شيئًا عنه، وجلس هو وذو الفقار مع الوالى فى عربته، يرتشفون القهوة، ويصغيان إلى حكايات سعيد وهو يتباهى بقيادات فرسانه العسكريين. وكانت المناورات العسكرية تشتمل غالبًا على ألعاب على ظهور الجياد عبر الصحراء. وكانت

المناورات رائعة وتنطوى على مهارة عظيمة من جانبهم، وقد استمتع بها سعيد مع شعوره بالفخر العميق بأن هؤلاء كانوا جنوده الخصوصيين.

وكان الوقت فى ذلك المساء غير موات بالتأكيد. ولكن فى صباح اليوم الثالث لم يكن ديليسبس قد ذاق طعم النوم. اضطجع على سرير قاس داخل خيمته فى حالة هياج وقلق. وبدت الخيمة فاسدة الهواء بشكل غير محتمل، فنهض وذهب إلى الخارج ليستنشق بعمق هواء الصباح البارد. كان الندى لا يزال كثيفًا على الحشائش، ولكن الشمس فوقه كانت قد بدأت فى إرسال أشعتها عبر ضباب الصباح. وألقى نظرة خاطفة على الصحراء، ولكنه وقف فجأة مذهولاً.

تشكل فى الأفق قوس قزح هائل من الندى والتراب والضباب، ممتدًا أمامه على مسافات بعيدة، طرفاه تخفيهما جبال نائية، وعرضه يبدو وكأنه يربط السماء بالأرض. كان منظرًا مهولاً إلى حد ما، أما بالنسبة إلى ديليسبس فقد بدا له وكأن له معنى خارقًا للطبيعة. هنا كانت الرسالة الموجهة إليه من السماء ! هنا والآن كان أعظم وقت ملائم.

شعر بانفعال داخلى عميق وهو يشاهد قوس قزح، وتراءى له بشكل واضح أن الله نفسه كان يوجهه الآن، كما شعر بأن الله بجانبه، فكيف يمكن أن يفشل؟ لقد كان تقريبًا الأداة لإرادة الله لجلب السلام إلى العالم فى هذا الوقت، من خلال ربط البحرين العظيمين، البحر الأحمر والبحر المتوسط.

وأخذ يمشى أمام خيمته إلى الأمام وإلى الخلف، يردد صلواته الصباحية، ومسبحة والدته ملتفة حول أصابعه، سعيدًا بأنه قد وجد ربه المسيحى فى هذا البلد غير المسيحى. ولكن عقله ظل طوال الوقت مشغولاً بالكلمات التى سيقولها لحاكم مصر.

كان هذا هو اليوم !

إنه يوم الخامس عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٥٤، كان قد مر على وصوله إلى مصر ثمانية أيام.

ذهب كالمعتاد ليأخذ قهوة الصباح مع الوالى، وكان ذو الفقار هناك، وكان هناك أيضاً أخ آخر هو حليم باشا، وكذلك المعاونون العسكريون للوالى. وسر ديليسبس أن يجد الوالى يتمتع آنذاك بروح فكاهية عالية. كان سعيد رجلاً متقلب المزاج، وعندما يكون مزاجه سيئًا فإنه لا يستمع إلى أحد. ولكن مزاجه الجيد هذا الصباح كان بشيرًا أيضًا. لقد فتحت السماء بابًا لقناة السويس.

ورجع فرديناند إلى خيمته لتناول الإفطار، كما كانت عادته، وفتح حزمة أوراقه. هذه هى الأوراق التى أخذها معه عندما عاد إلى عربة الوالى. وكان ذو الفقار لا يزال مع أخيه منتظراً عودة ديليسبس، على الرغم من ذلك لم يكن قد قال شيئًا لأخيه حول نية صديقه.

جلس الرجال الثلاثة يتحدثون فى موضوعات متنوعة. كان سعيد ممتلئًا بمشاعر وطنية عشية يوم تتويجه الثانى - إنه كان قد توج بالفعل فى القسطنطينية كحاكم لمصر تابعًا للإمبراطورية العثمانية - وتحدث عن مصر وأحلامه نحوها ونحو عهده فى الحكم.

وقال " إننى أريد أن يسجل اسمى فى التاريخ باعتبارى واحداً من الذين جلبوا الازدهار لمصر، وليس الحرب".

حبس ديليسبس أنفاسه. مرة أخرى تتدخل السماء - توجه النقاش على هذا النحو، لدرجة أنها أعدت ثغرة للدخول فى موضوعه العظيم !

قال ديليسبس " أتريد أن يسجل التاريخ عهدك بأنه العهد الذى ازدهرت فيه مصر كما لم تزدهر من قبل؟ أتريد منى أن أخبرك كيف تفعل هذا؟ حسنًا، يمكننى أن أخبرك أننى أعرف وسيلة لذلك".

حملق الوالى نحوه - ثم سحب طربوشه إلى أسفل فوق عينيه، كما كان معتاداً أن يفعل عندما يفكر أو ينام. بعد عدة دقائق بدأ ديليسبس فى التعجب مما يعنيه ذلك - نظر إلى ذى الفقار الذى رفع أحد حاجبيه تقريباً ولكن لم يقل شيئاً.

قال سعيد وهو يفتح إحدى عينيه "أخبرنى - إننى منصت" قال ديليسبس " هل تتذكر عندما كنت تلميذى كيف كنّا ننظر أثناء ركوبنا الجياد إلى بقايا القناة القديمة التى ربطت النيل بالبحر الأحمر".

دفع سعيد طربوشه إلى الخلف للحظة، ثم جذبه على جبهته مرة ثانية، وقال " إننى أتذكر . لقد قطعت هذه الدروب ذاتها مراراً".

قال ديليسبس " تلك القناة القديمة لم تدم لأنها بنيت خطأ. لقد تراكم طمى النيل فيها حتى طمسها فى آخر الأمر. ولكن شق قناة مباشرة عبر السويس تربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، كما اقترح لينانت بك مؤخراً، وعمل بحيرة يفيض الطمى فيها، فإنك تكون قد قصرت بآلاف الأميال الطرق البحرية لسفن العالم. وفضلاً عن ذلك ، تكون قد أنجزت شيئاً لم ينجح أحد غيرك فى عمله! يمكن عملها يا سعيد. أولئك الذين يقولون بأنه لا يمكن عملها جاهلون بالحقائق. إذا ما قمت ببناء قناة كهذه، سوف يبقى اسمك نضيراً إلى الأبد".

خلع الوالى طربوشه كلية وقال " سأستمع ...... أخبرنى الآن".

أحضر ديليسبس أوراقه. كان قد اقتفى أثر اكتشافات المهندسين منذ زمن نابليون حتى الوقت الحاضر، كما عرضها مهندس الحكومة المصرية لينانت بك.... " كما ترى كان لابير مخطئاً. فالبحران لا يختلفان فى المستوى. يمكن بناء القناة عند مستوى البحر، فى خط مستقيم عبر السويس - سوف تكون قناة عملية، وغير مكلفة بحيث تحقق مكسباً جيداً. إنها ستحقق مزايا تفوق كثيراً ما يمكن أن تتكلفه، ولن يكون فى مقدور أحد أن يقدر قيمتها بالنسبة إلى العالم".

درس الوالى بنفسه الخرائط وقام بعمل تقديراته الخاصة. ومر على جميع الأوراق وتفحصها بسرعة. ثم مال إلى الخلف، وجذب طربوشه ليغطى عينيه تمامًا. وجلس ساكنًا. ترى هل كان ديليسبس على معرفة محددة بسلوكه، ربما ظن أن جلالته كان نائمًا. وأخيرًا دفع طربوشه إلى الوراء، وجلس معتدلاً للغاية. وابتسم لمستشاره الجديد.

وقال الوالى " إننى أفهم المشروع. أنا موافق على خطتك يا صديقى. أنا أيضًا أعتقد أنه يمكن عمل القناة. والآن سنمضى باقى الوقت من هذه الرحلة فى حساب كيفية عملها".

صرخ فرديناند من الفرحة. أمسك بيد سعيد وقبض عليها بقوة. كان يشعر بالدموع تلمع فى جفونه. ونهض فجأة من الديوان. وصاح بصوت مبحوح " إنها لفرحة عظيمة جدًا. يجب أن أتركك! ". وذهب إلى الخارج ، وطار على حصانه وهو يرقص فرحًا، قافزًا على الحواجز التى تحيط بمنطقة الوالى لضمان سلامته.

كان القادة العسكريون لسعيد جالسين فى الظل، يراقبون قواتهم فى فترة الراحة. أخذوا يهتفون عندما رأوا الرجل الفرنسى يقفز بحصانه بكل المهارة المعروفة عن الرجل العربى. كانوا هم أيضًا من الفرسان المهرة، ويقدرون مهارة الآخرين. فالرجل الذى يستطيع الركوب بهذا الشكل، فإنه يستطيع أن يفعل أى شىء تقريبًا. ولم يختلف اثنان بصدد الموافقة على ذلك.

وقبيل غروب الشمس مباشرة دعا الوالى هؤلاء القادة أنفسهم إلى عربته لعقد اجتماع. وبعث رسولاً إلى ديليسبس للانضمام إليهم. وجاء فرديناند يقود حصانه بأسرع ما يمكن ، وقفز مرة أخرى على الحاجز المرتفع بسهولة. سمع القادة يهتفون له، رافعين أيديهم ترحيبًا.

أمر الوالى فرديناند "أخبرهم أيضًا ما أخبرتنى به هذا الصباح". وأخبر ديليسبس القادة المصريين بالنتائج النهائية التى استخلصها بصدد القناة. كان يدرك

أنهم لم يفهموا إلا شيئًا قليلاً من إيضاحاته أو لم يفهموا شيئًا على الإطلاق، لأنهم لا يعرفون عن الهندسة إلا قليلاً، أو لا يعرفون شيئًا عنها البتة. ولكن عندما سألهم الوالى " ما رأيكم فى مشروع صديقى لبناء قناة كهذه عبر السويس؟ هل نوافق على عملها؟ وصوّت كل رجل هناك: نعم ! وتبرير ذلك عندهم أنه لا يمكن أن يكون لدى الرجل أفكار خاطئة إذا ما كان فارسًا ممتازًا على هذا النحو. ولكن قلة منهم كان لديهم من الخيال ما يجعلهم يخمنون ما تعنيه قناة كهذه لمصر أو للعالم.

أمر الوالى ديليسبس قائلاً " أعد مذكرة بخططك كاملة لكى تقدم لى رسميًا فى القاهرة".

وفى كل محطة على الطريق كانت الأضواء تظل باقية إلى وقت متأخر فى خيمة فرديناند منذ ذلك الوقت. وكان قد أخبر الخدم، بعد وصوله إلى مصر بقليل، أنه لا يحتاج إلى طاولة مزودة بالطعام حتى وقت متأخر من الليل. ولكنه الآن غير أوامره، إذ لابد من القهوة والطعام يتزود منهما من آن لآخر وهو يتردد على أوراقه. يجب أن تغطى المذكرة كل الأسئلة المحتملة. يجب أن تجيب على كل الاعتراضات المتوقعة.

وكلما عمل أكثر ، يبدأ فى التيقن أكثر بعظمة المشروع. إنه يمكن أن يغير بشكل أحسن تاريخ العالم بأكمله. بل يمكن أن ينهى الحرب إلى الأبد، أو أن يسبب الحرب إذا لم تتم إدارته جيداً.

كل دولة ترغب فى أن تظل القناة محايدة دائمًا على أية حال، وأن تظل مفتوحة دائمًا، ولتحقيق ذلك سترفض كل دولة أن تشن حربًا على دولة أخرى. وكم هو من حسن الطالع أن تكون مصر ومحمد سعيد هما من يبنى هذه القناة!

وأعاد قراءة المذكرة بعد إعدادها

"معسكر مارى

١٥ نوفمبر ١٨٥٤ "

" إن ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر معا بقناة ملاحية مشروع جذبت فائدته اهتمام جميع الرجال العظماء، الذين حكموا أو الذين كانوا فى مصر لفترة من الوقت، مثل سيزوستريس .[٢٧] ، والإسكندر ، وقيصر، والفاتح العربى عمرو، ونابليون الأول، ومحمد على.

وكانت هناك فى العصور القديمة قناة ربطت ، عن طريق النيل، بين البحرين – ولكننا لا نعلم كم من الزمن استمر هذا الربط – فى ظل الممالك المصرية القديمة، وخلال فترة ثانية مدتها ٤٤٥ سنة، منذ الخلفاء الأول للإسكندر والغزو الرومانى حتى القرن الرابع قبل الهجرة، وأخيراً لفترة ١٣٠ سنة بعد الفتح العربى".

وذكر كيف أن نابليون ، بمجرد وصوله إلى مصر، عين لجنة لكى تنظر فى إمكانية عمل مثل هذه القناة. وأشار إلى تقرير لابير، وهو التقرير ذاته الذى كان قد قرأه لأول مرة على السفينة التى حجر عليها صحيًا عندما كان شابًا فى سن العشرينيات. وقد اقتبس كلمات نابليون عندما قرأ تقرير لابير. " المهمة عظيمة، على الرغم من أننى لن أستطيع الآن إنجازها، فإن الحكومة التركية ستنال شرف تنفيذها".

ثم شرع ديليسبس فى عرض مشروعه.

" لقد آن الأوان لتحقيق نبوءة نابليون.

إن شق قناة عبر برزخ السويس مشروع من المؤكد أنه مقدر له أن يساهم أكثر من أى مشروع آخر فى المحافظة على الإمبراطورية العثمانية، ويظهر لأولئك الذين أعلنوا قرب تمزقها بأنها لاتزال أمامها حياة مثمرة، وأنها قادرة على أن تضيف صفحات ناصعة أخرى إلى تاريخ الحضارة".

وفى الوقت الذى كان ديليسبس يكتب مذكرته، قامت روسيا بغزو تركيا بأمل الحصول على ميناء جديد على البحر الأسود، كما شكلت فرنسا وإنجلترا حلفًا على

عجل لمقاومة العدوان الروسى الذى عرف باسم حرب القرم .[٢٨] ، وقد أدت هذه الحرب ذاتها فيما بعد إلى تعقيد المواقف السياسية إزاء قناة السويس.

لقد نشبت حروب دائمًا بسبب حق دولة ما فى استخدام الممرات المائية، ومن المؤكد أن فتح ممر مائى مثل قناة السويس أمام كل الدول سيمنع الحروب.

" إذا ما قدر لتجارة العالم أن تمر عبر مصر (من خلال قناة كهذه) فإن موقف الإمبراطورية سيقوى إلى حد كبير، لأن القوى الأوروبية العظمى لكى تمنع أى قوة منها من السيطرة على القناة ، سترى كضرورة حيوية أن تحافظ على حيادية القناة". ثم أخذ ديليسبس فى وضع الخطوط العريضة لخطته.

إن لينانت بك مهندس الحكومة المصرية الشهير والذى جعل مسألة ربط البحرين معًا شغله الشاغل فى الدراسة على امتداد ثلاثين عامًا، كان قد اقترح شق البرزخ فى خط مستقيم تقريبًا عند أضيق نقطة فيه، وذلك لتشكيل ميناء فى حوض بحيرة التمساح، وجعل ممرات بيلوز والسويس متاحة للبواخر ذات الحمولة الأكبر للمرور من البحر المتوسط والبحر الأحمر. كان ذلك قرب نهاية عصر السفن الشراعية. وبداية المراكب البخارية التى يمكن أن تجعل القناة أكثر فائدة حتى مما كان يأمله ديليسبس.

وتعكس الفقرات الختامية للمذكرة شخصية الرجل من حيث إشارتها المبهمة والمعتادة للضرورات الاقتصادية لمشروع هائل كهذا .

" لا توجد عملية مهما كانت صعبة ينظر إليها الفن الحديث الآن على أنها مستحيلة. إن جدواها الاقتصادية لا ريب فيها. إنها ببساطة مشكلة أموال، وهى مشكلة ستحل بسرعة بفضل فاعلية المشروع وبفضل روح التعاون، وذلك إذا ما كانت الأرباح التى ستنجم عنه تتناسب مع تكلفته. ومن السهل توضيح أن تكلفة قناة السويس، إذا ما أخذنا بالتقديرات المرتفعة، ليست بعيدة عن التناسب مع المنافع

والأرباح لهذا المشروع العظيم الذى سيقصر المسافة - بمقدار النصف - بين الدول الرئيسية فى أوربا وأمريكا وبين جزر الهند الشرقية".

وقام الوالى بوضع بعض المقترحات بتغييرات فى الوثيقة الطويلة، وذلك على الرغم من موافقته على القسم الأعظم منها. لقد طلب من ديليسبس أيضًا أن يضع صيغة لفرمان - وهى ورقة بمنح الامتياز لبناء القناة بإذن من تركيا التى تحكم الإمبراطورية.

ولكن الامتياز لم يمنح لديليسبس نفسه، بل للشركة العالمية التى كان عليه أن ينظمها، على الرغم من أنها لم تكن موجودة حينئذ، بغرض بناء القناة.

وعندما تمت موافقة الوالى على جميع الوثائق، قال ديليسبس " وهكذا فإن أول شىء يجب على القيام به هو الحصول على موافقة تركيا على فرمانك".

ونصحه سعيد قائلاً " احصل على قبول القنصل البريطانى، السيد بروس. وسيكون الأمر سهلاً مع حلفكم الأنجلو - فرنسى الجديد لحماية تركيا". ولم يكن ديليسبس واثقًا بالمرة من أن ذلك الأمر يمكن أن يكون سهلاً كما انطوت على ذلك كلمات الوالى، وقد يجد ذلك مثيرًا للانتباه. وكان يتعجب غالبًا كيف يكون هذا الحلف الأنجلو - فرنسى قويًا حقًا. وسيعرف ذلك عاجلاً على الأقل.

وعد ديليسبس الذى نفد صبره قائلاً " سأرى السيد بروس بمجرد أن أصل إلى القاهرة".

كان الركب ينهى رحلته فوق سطح باخرة نيلية صغيرة. جلسوا على السطح تحت غطاء زاه مقلم، يتحدثون حول القناة - دائمًا وأبدًا سيكون الحديث حول القناة، وديليسبس يزيد اهتمام رئيسه بها ساعة بعد ساعة.

اعترف فرديناند قائلاً: "أين سأجد شركتى؟ وكيف أبدأ فى جمع الأموال؟ هذه الأمور بعيدة تمامًا عن خبرتى. إننى لا أعرف من أين أبدأ".

سأله الوالى " إن لك أصدقاء فى كل الدول، أليس كذلك يا صديقى؟

أجاب فرديناند "لى أصدقاء فى كل مكان"

سأل الوالى " ألك عديد من الأصدقاء الذين لديهم أموال؟"

قال ديليسبس " لى أصدقاء كثيرون لديهم أموال، وأصدقاء أكثر ليس لديهم أموال".

ابتسم الوالى ابتسامة عريضة وقال " سنحتاج أولاً إلى الأصدقاء الذين لديهم أموال. أخرج وأوجد لنفسك مائة صديق - فى مصر وفرنسا وفى العالم وفى أى مكان يمكن أن يكونوا فيه - مائة رجل من الذين يثقون فيك يكفون للمخاطرة بألف دولار فى مشروع الجديد.

سيكون هؤلاء هم أول حملة الأسهم لديك ومنهم يمكنك أن تلتقط الموظفين لشركتك الجديدة".

إن المسألة لم تكن سهلة كما كان يعتقد، وهى أن تجد مائة رجل راغبين فى المخاطرة بأموال فى مشروع لا يعرفون عنه شيئًا تقريبًا. يحتاج الأمر إلى ثقة وإلى شجاعة أيضًا للمخاطرة حتى بألف دولار - فى مشروع لم يجرب مثل هذا. كيف لهم أن يتأكدوا من أن القناة يمكن أن تتم؟

قال لهم ديليسبس " ما أبدأه أنهيه، إننى لا أستسلم". كما أن أولئك الذين لديهم الثقة والشجاعة للقيام بمخاطرة عظيمة كهذه يجب أن يعيشوا ليروا اليوم الذى سيكون فيه الألف دولار الخاص بهم قد أصبح مائتى ألف دولار، وأن المشروع نفسه قد أصبح من أعظم المفاخر الهندسية يتم إكماله على الإطلاق.

أسبوعان فقط قضاهما فى مصر وكانت أحلامه قد بدأت تصبح بالفعل حقيقة. وعلى الأقل أصبحت أقرب - قريبة بما يكفى لكى يراها فى شكلها المفصل الآن. لقد بدأت السحب تنقشع.

الفرمان أولاً ! هكذا أيقن ديليسبس أنه بمجرد الحصول عليه، فإن المشكلات الأخرى ستكون على طريق الحل على ما يرام.

وأخبر سعيد وهم يرتشفون القهوة " سأرى السيد بروس. إذا لم تنجح زيارتى فإننى سأسافر فوراً إلى القسطنطينية. ومن ثم فإننا فى حاجة إلى الوصول إلى رئيس الوزراء التركى قبل أن تصل إليه إنجلترا. ولكننى لا أستطيع أن أتخيل أن ترفض إنجلترا إعطاء موافقتها، أو أن ترفض السماح لتركيا بإعطائه.

سنرى قريبًا".

الفصل الحادى عشر

تفاؤل حذر

إن الحماس الموفق الذى عرض به فرديناند موضوعه المفضل على الآخرين، جعل بالتالى من الصعب على أى إنسان يستمع إليه ألا يلمس بعضًا من حماسته المتقدة. وقد جعله ذلك يتصور غالبًا أن الجميع كانوا متفقين معه، ولكن عندما يبتعدون عن جاذبية حضوره ويكونوا قادرين على التفكير بشكل أكثر هدوءًا، فإنهم يكونون، على الأقل ، متشككين فى أن هذه الفكرة العظيمة فكرة عملية. ولعل هذا يفسر إلى حد ما لماذا كتب فرديناند تقريراً إلى الوالى بأن القنصل البريطانى فى مصر وافق على القناة؟

فقد كتب ديليسبس فى تقريره أن السيد بروس قد أعطى موافقته على الخطة حقًا، على الرغم من أنه لم يكن لديه الوقت بطبيعة الحال لإرسال تقرير إلى حكومته. ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك للإقرار بأنه شخصيًا لا يجد أى اعتراض على المشروع على النحو الذى عرض به طالما أن كل شىء سيتم بواسطة شركة عالمية وليس بواسطة دولة واحدة، وطالما أن إدارة المشروع ستكون عالمية أيضًا دون إعطاء مزايا خاصة لأى دولة منفردة. وإذا كان ذلك بالضبط تصور ديليسبس وسعيد، فإنه لا يوجد أساس لعدم الموافقة.

ولكن يبدو أن المشروع حتى هذا اللحظة كان مستحيل التحقيق لدرجة أن القنصل البريطانى كان قليلاً ما يفكر فى أنه يستحق معاناته فى التعبير عن شكوكه،

وأن يطرح عقبات أمام مشروع كان محض خيال بالكامل ولن يكون اى شىء أخر.
وعلى الأقل كان هذا على ما يبدو الشعور السائد فى لندن، لأنه فى ١٨ ديسمبر - بعد أسبوعين من حديث ديليسبس مع السيد بروس - طرحت جريدة التايمز اللندنية وجهة نظرها:

" على الرغم من التوقعات المتفائلة للسيد ديليسبس ، فإنه من المعتقد عموماً أن هذا المشروع، الذى سيحتاج إلى رأسمال قدره ستة ملايين جنيه إسترلينى بالتمام، لن ينفذ فى الواقع ، إذ طالما أن أوربا منخرطة فى حرب رهيبة (حرب القرم) والتى لا يمكن لأى إنسان أن يتنبأ بنهايتها، فإنه لا يحتمل أن يقدم كثير من الأشخاص على توظيف أموالهم فى مشروع كهذا، ولذلك فإن المشروع ، مثله فى ذلك مثل المشروع الذى اقترح مؤخراً بتسيير زوارق قطر بخارية فى النيل، سيموت موتًا طبيعيًا، منذ اللحظة التى يطلب فيها من أصحاب رءوس الأموال أن يشتروا أسهمًا فيه، ومن المحتمل أن يكون سعيد باشا قد أعطى موافقته بهذه السهولة لأن جلالته لا يرى احتمالاً كبيراً للبدء فى هذا العمل، ويجب أن يؤخذ فى الاعتبار أيضًا أن قبول سعيد باشا يتطلب تأكيداً له من السلطان فى القسطنطينية، حيث يمكن للمصالح السياسية أن تغرى الوزراء الأوربيين بنصح الباب العالى بالإحجام عن المشروع.

" العقبة الكبرى المرافقة للاستفادة من قناة عبر برزخ السويس تكمن فى ضخامة عمق البحر لمسافة طويلة من ناحية السويس ومن ناحية شواطىء البحر المتوسط، وأن القناة يفترض أن تشق فى صحراء قاحلة حيث لا يمكن إيجاد قطرة من المياه الصالحة للشرب. وعند السويس لا تستطيع السفن أن تصل إلى الشاطىء على امتداد سبعة أميال، ولذلك فإن قناة عبر برزخ السويس ستكون قليلة النفع عندما لا تستطيع السفن أن تصل إلى فم الفتحة المقترحة التى تبعد مسافة سبعة أميال من ناحية البحر الأحمر، وأربعة أميال من ناحية البحر المتوسط".

ولكن محرر التايمز اللندنية من الواضح أنه لم يكن مهندساً، إن لينانت بك الذى كان مهندساً لم يكن يعتقد أن القناة يمكن أن تعمل فحسب، بل كان تواقًا لإثبات ذلك. على الرغم من ذلك فإن الكلمات التى كتبها المحرر فى هذه الصحيفة لعبت دوراً كبيراً فى تشكيل رأى أهل بلده.

وأياً كانت مبررات السيد بروس حول موافقته، فإن الوالى عندما سمع تقرير موظفه علق بسخرية "أتمنى أن تكون على صواب".

وفى اليوم التالى تلقى فرديناند استدعاء من سعيد باشا للمجيء إلى قصر القلعة لحضور اجتماع مع القناصل الأجانب. ارتدى ملابس البلاط الخاصة به، وذهب إلى القلعة وهو لا يزال غير متأكد من سبب الدعوة للاجتماع، ولكنه كان يأمل أن يكون له صلة ما بالسويس.

وعندما اجتمعوا نهض سعيد باشا وتكلم ببطء حتى يكون لدى المترجمين الوقت للترجمة وهو يتحدث. ولقد أراد أن يعلن لهم، كما قال، أنه قد قرر أن ينشيء قناة بحرية عبر السويس، وأنه أعطى صديقه العزيز من فرنسا، الكونت فرديناند ديليسبس امتيازاً لتنظيم شركة عالمية لهذا الغرض. وقد اشترط الامتياز أن الإذن يجب الحصول عليه أولاً من الباب العالى الذى يحكم نشاطات الإمبراطورية العثمانية. ثم التفت مبتسماً نحو معلمه السابق، وقال " أليس هذا صحيحاً يا صديقى؟ أخبرهم عن هذا الأمر".

لم يضيّع فرديناند وقتًا لإخبار قصته لأولئك المجتمعين من ممثلى معظم دول أوربا وأمريكا وآسيا. وكالمعتاد جذب المستمعين إليه. وقد عبروا جميعًا الواحد تلو الآخر عن موافقتهم. يا له من شيء حسن للدول التى يمثلونها! يا له من شيء رائع لتجارة العالم فى كل مكان! وانتهى الاجتماع وكل واحد منهم يهرع إلى قنصليته ليكتب تقريره إلى حكومته. كانت هذه أخبار الأحداث الجارية!

وعندما انصرف القناصل ، التفت ديليسبس نحو الوالى وعيونه تلمع من فرط التأثر، وقال:

" لقد بلغت التاسعة والأربعين من العمر الأسبوع الماضى. لقد قدمت لى أعظم وأروع هدية عيد ميلاد عرفتها فى حياتى".

وشاء الوالى أن يناقش الاجتماع فقال " هل رأيت تعبيرات السيد بروس؟ لم يكن لديه أى كلمة من حكومته، ولا حتى أى تقدير لتقريره، على الرغم من أنه كان أول من سمع عن خططنا. هل تنوى إنجلترا أن تعرقلنا؟"

وعلق ديليسبس قائلاً " إذا وافق الآخرون، فسيكون على إنجلترا أن توافق، حتى إذا ما كان القنصل الأمريكى قد ابتسم عندما قلت إننا يجب أن ننهى قناتنا قبل أن تبدأ قناته الأمريكية التى ستربط بين محيطيهما. يا له من تقدم سريع نحققه!

وحذر سعيد حيث قال " ربما ليس بهذه السرعة على ما يبدو فسوف يكون الحصول على إذن تركيا صعبًا بدون موافقة إنجلترا. ومن ثم لن تكون هناك قناة بدون موافقة تركيا".

أعلن ديليسبس " أعدك بأننى سأحصل على تلك الموافقة ، وسيكون فرمانك موقعًا عليه من الصدر الأعظم التركى أو من السلطان نفسه إذا ما اقتضى الأمر أن أذهب إلى القسطنطينية للحصول عليها" .

وكان عليه أن يذهب بعيدًا بل أبعد كثيرًا مما تصور قبل أن يمنح الفرمان فى نهاية الأمر، كان عليه أن يسافر أكثر من خمسة وعشرين ألف ميل على ظهر الجمل وفوق سطح الماء حتى قبل أن يبدأ العمل فى قناة السويس.

فى ٣٠ نوفمبر، ولم يكن قد مضى شهر على قدوم ديليسبس إلى الإسكندرية، كان الامتياز الذى منحه الوالى إلى وكيله قد وقع فى القاهرة. لقد كان اتفاقًا

شخصيًا منح " لصديقنا السيد فرديناند ديليسبس". لقد منح حقًا حصريًا لتنظيم وإدارة شركة مملوكة عالميًا، وهى الشركة التى كان يفترض إقامتها بغرض القيام بشق وبناء قناة عبر البرزخ.

وكان حملة الأسهم فى الشركة سيحصلون على ٧٥٪ من الأرباح، وتحصل الحكومة المصرية على ١٥٪ ، ويحصل المؤسسون على ١٠٪. وكان مفترضًا أن يكون المشروع بعيداً عن أى مشكلات سياسية داخلية أيًا كانت. وستكون رسوم المرور واحدة بالنسبة إلى جميع الدول، ولن يتم تفضيل دولة على أخرى.

وكانت مدة الامتياز تسعة وتسعين سنة تبدأ من تاريخ الانتهاء من عمل القناة، وفى نهاية هذه المدة تصبح ملكًا لمصر. ولم يكن العمل ليبدأ قبل أن يكون الامتياز قد صدق عليه من الباب العالى.

إن الحصول على ذلك التصديق استغرق معظم وقت ديليسبس على امتداد أربع سنوات. ولكن قبل أن يطلبه كان يجب عليه أن يعطى للوالى تأكيداً بأن الخطة ممكنة. ولذلك يجب أن يكون هناك أولاً استكشاف كامل لموقع القناة بمعرفة المهندسين المختارين لبناء القناة. وعندئذ لن يكون لدى الباب العالى أى أسس لرفض الفرمان. وسيتكفل حملة الأسهم الأصليون - المؤسسون - أعباء الأموال التى ستدفع للاستكشاف.

غادر فريق الاستكشاف القاهرة قبل يومين من عيد الميلاد المجيد عام ١٨٥٤، وسافر مع المهندسين ومساعديهما مجموعة من الأصدقاء من القاهرة والذين سيصحبون من حملة الأسهم فى الشركة الجديدة. سافروا على الجمال معظم الطريق، وسرعان ما تعلم فرديناند أنه لكى يستقر المرء على ظهر الجمل عندما يقوم الجمل ويرفع ركبتيه، يجب عليه أن يميل إلى الأمام كثيراً، بدلاً من أن يميل إلى الخلف، لكى يحفظ توازنه.

واحتفظ ديليسبس معه بدفتر لتسجيل يوميات دقيقة، وذلك لكى يكون لديه سجل مكتوب حول كل انطباع طوال الرحلة، وقد أصر على هذه اليوميات لأنها ستكون مفيدة عندما يتحدث مع رجال من غير المهندسين والذين تتماثل وجهات نظرهم مع وجهة نظره. وأصبحت هذه اليوميات سجلاً لردات أفعاله العاطفية تجاه أحداث الرحلة. وكانت ردات أفعال ديليسبس تصدر عادة من القلب أولاً ثم من العقل ثانياً.

" أضاءت الشمس المشرقة غرفتي، وعندما فتحت نوافذى حملقت بتأمل صامت فى البحر الأحمر ..... السويس موقع معزول محاط بالصحراء ، عدد سكانها يتراوح بين ثلاثة إلى أربعة آلاف نسمة، وهى مكان بائس للغاية، لا يوجد فيها سوى ماء مالح للشرب، قناتنا ستوفر لها الماء والنشاط اللذين تفتقر إليهما ... إننى متلهف لأن أرى كل شيء لصالحى، كما أننى عندما أستوعب أى شيء بنفسى، فإننى سأتمكن من جعله مفهوماً لأولئك الذين ليسوا من المهندسين".

كانت البعثة تقضى نهارها فى الاستكشاف ، وكان الليل للاستماع إلى المهندسين يشرحون حساباتهم وتقديراتهم. كان لكل واحد من المهندسين إسهامه الخاص به يقدمه للبعثة. كان لينانت يعرف طبوغرافية البلد من الناحيتين الجيولوجية والجغرافية. كان على دراية عميقة بنظام القنوات الكامل فى مصر، ولديه معرفة أيها كان لها أهميتها الخاصة بالنسبة إلى المشروع الجديد.

وكان " موجيل" من ناحية أخرى قد بنى العديد من مشروعات الرى بالمياه المتحركة العظمى فى مصر، وكان بإمكانه ، بعد أن يدرس الطريق بأكمله، أن يجيب عن السؤال الذى لم يستطع أحد أن يجيب عنه حتى ذلك الحين وهو: أين سيكون الدخول إلى القناة سواء من ناحية البحر الأحمر أو من ناحية البحر المتوسط؟

قضى أعضاء البعثة عيد الميلاد وهم يسيرون على طول موقع القناة، يتتبعون آثار الطرق المائية القديمة التى بناها فراعنة مصر. وقبل أن ينتهوا من استكشافاتهم، كانوا قد ذهبوا من السويس إلى الشلوفة إلى البحيرات المرة الصغرى إلى سيرابيوم

إلى بحيرة التمساح إلى القنطرة إلى بحيرة المنزلة إلى بيلوز التى أعيدت تسميتها فيما بعد باسم "بورسعيد" . وقاس مساعدو المهندسين قاع القناة القديمة، ووجدوا أن قياساتها هى ذاتها التى كان هيرودوت قد سجلها قبل آلاف السنين، فقد حدد هيرودوت العمق بتسعين ذراعًا، على الرغم من أن الذراع الطولى قد يختلف إلى حد ما، فإنه عبارة عن المسافة بين الإصبع والكوع، وهى عادة ما بين ١٨ إلى ٢٠ بوصة. وكان عمق القناة لا يزال تسعين ذراعًا.

وعادت البعثة فى المساء المتأخر إلى الفندق ليتحدث أفرادها حول اكتشافاتهم، بينما كان خادم لينانت يقدم لهم القهوة وهم يرسمون الخطوط التى يمكن أن تتخذها القناة.

وفى اليوم التالى بدأوا يتجهون بسفينة بخارية صغيرة نحو عيون موسى، التى يقال عنها بأنها كانت أول مكان للاستراحة وصل إليه موسى وسمح لأبناء بنى إسرائيل بالاستراحة فيه عندما كانوا يهربون من مصر. وعلى الطريق كان عليهم أن يتوقفوا للإفطار عند البحيرة أو العين الأولى. وكان هناك السيد كوستا مدير الفندق قد أعد وجبة إفطار للبعثة الرسمية للوالى، وكان الطبق الرئيسى فيها خروف مشوى بأكمله. وقد استقبلهم السيد كوستا عند رصيف الميناء، وقادهم بفخر إلى غرفة طعامه. وبنبرة متباهية فى صوته أخذ يقدمهم إلى زوجته وشقيقتها، اللتين كانتا ترتديان أبهى ملابسهما الشرقية، وكانتا نصف محجبتين فى وجهيهما، وقد صبغتا وزينتا جفونهما، وخدودهما وحتى أظافرهما. ودعاهما ديليسبس بسرعة للانضمام إلى الضيوف القادمين من القاهرة إلى السفينة الصغيرة التى كانت فى انتظارهم حتى الانتهاء من إفطارهم.

وكانت الرياح تهب عليهم محملة بالرمل الأحمر - وكان بإمكانهم رؤية دوامات هوائية حمراء فى الأفق البعيد وهم يصعدون إلى السفينة. وكانوا كلما ابتعدوا أكثر

كانت الأمواج تعلو أكثر. وكانت الرياح مرة بعد أخرى تكاد تطيح بالسفينة الصغيرة على جانبها. وكانت النساء الشرقيات خائفات فى كل لحظة، مثلهن فى ذلك مثل ما يبدو من النساء الأوربيات، وكن يصرخن بشدة أحيانًا وبصوت خافت أحيانًا أخرى.

وقد شعر كل واحد على ظهر السفينة بالبهجة فعلاً عندما أعلن القبطان أخيرًا " البحر سيئ للغاية ولا يمكننا التوقف عند عيون موسى، ومن الخطورة مجرد محاولة ذلك، هل نرجع يا سيدى؟"

وافق فرديناند قائلاً " ارجع، فالطرقات ستكون متربة للغاية. ولن نستطيع السفر فيها لو استطعنا النزول إلى الأرض".

وعادت السفينة الصغيرة وهى تزمجر إلى السويس، وقرر الزائرون أن يعودوا إلى القاهرة صباح اليوم التالى مبكرين. ولم يشعر ديليسبس ورجاله بالأسف لرحيلهم. الآن يستطيعون التفرغ للعمل.

وقضوا أسبوعًا وهم يفحصون ميناء السويس قدمًا قدمًا. وفى فترة الجزر ذهبوا ليتفحصوا ما اعتقدوا أنه صخور ضخمة على بعض الجزر الصغيرة.

وعندما وصلوا إلى الجزر وجدوا أن الصخور عبارة عن قطع من بناء قديم.

وحتى فوق هذه الجزيرة المتصخرة عاش الناس فى يوم ما وشيدوا الأبنية.

وكتب فرديناند فى صحيفة يومياته فى ذلك المساء " أى نوع من الناس وأى نوع من المراكب وصلوا إلى هذه البقعة فى الأجيال الغابرة؟ "

وجمعت البعثة عينات من الصخور والنباتات، ومن الرمال والمياه ، للعودة بها لتحليلها. واكتشف أفراد البعثة فوق الجزيرة مقبرة قديمة كانت فى يوم ما لشركة الهند الشرقية، وهى المقبرة التى كانت النساء العربيات يقمن بعملية سطو علنية عليها لاستخدام عظام النساء البيض كتمائم أو أحجبة بأمل أن يضمن أنه سيكون لديهن أطفال يوهبوا لهن من آلهتهن القديمة.

وقضى أعضاء البعثة ليلتهم الثانية فى السويس، حيث تناولوا العشاء مع القنصل البريطانى هناك، وكان ديليسبس أكثر ابنهاراً – مرة أخرى – بما يمكن أن تفعله القناة لكل الناس أينما كانوا، لأن وجبة ذلك المساء كانت تتكون من لحم الضأن من كلكتا، وبطاطس بن بومباى، وبازلاء خضراء من إنجلترا، ودجاج من مصر، وماء من نهر الجانج، ونبيذ من فرنسا، وقهوة المخا من اليمن، وشاى من الصين، وقد أحضرت كل هذه الأشياء إلى السويس على ناقلة برية.

وتعجب فرديناند بسعادة وقال " من يجرؤ على القول بأن العالم لن يأتى من خلال السويس!"

وقبل أن يمر شهر آخر كانت البعثة قد استكشفت كل قدم على الطريق من السويس إلى بيلوز، يضعون الخطوط وهم يستكشفون ، يقدرون عدد جالونات المياه التى ستفيض من النيل إلى البحر المتوسط عندما تنتهى القناة، وكم عدد السفن، ومن أى حجم، يمكن أن تمر عبر القناة، وما عدد الأيام والساعات التى تستغرقها فى ذلك، وما الحمولة التى يتوقع أن تحملها كل سفينة، وكم عدد الأطنان التى ستحملها كل منها. وخمّن أفراد البعثة تكلفة كل إنشاء من الإنشاءات ، وحاولوا أن يحددوا ما إذا كانت القناة القديمة قد خضعت للإصلاح بشكل كامل أو جزئى وبأى نسبة. وحينئذ كانوا مستعدين للاستماع إلى موجيل بك وهو يخبرهم عن اعتقاده من أين ستدخل السفن القناة ومن أين ستخرج منها، وأين يمكن للسفن أن تنتظر دورها عندما تكون القناة مزدحمة؟.

كانت هذه هى الأشياء التى كان ينبغى عليهم أن يعرفوها قبل ضرب أول معول فى الأرض.

وعندما تجمعت لديهم إجابات كافية، عادوا أدراجهم إلى القاهرة ليكتبوا تقاريرهم للوالى. إن طول القناة سيكون حوالى ٨٦ ميلاً من البحر المتوسط إلى البحر

الأحمر، مع عرض يتفاوت مابين ٣٢٨ قدماً حيث يكون جانبا القناة منخفضين إلى ١٩٠ قدماً فى المناطق المرتفعة التى تحتاج إلى حفر أعمق.

أما عمق القناة فسيكون ٢٦ قدماً بقاع عرضه ٧٢ قدماً، على أن يكون انحدار حافة القناة قرب الممر المائى الرئيسى بنسبة ١ : ٥ فى الأعلى وبنسبة ١ : ٢ قرب القاع.

وقد اكتشفوا أن القناة بأكملها يمكن أن تقسم إلى تسعة أقسام. ومعظم هذه الأقسام ، وربما جميعها، ستتم الإنشاءات فيها فى الوقت نفسه. ولن تكون هناك حاجة إلى أهوسة، ، فكلا البحرين مستواهما واحد.

وعندما كانوا يبحثون بعمق هذه الملاحظات الميدانية، بدأت تتضح أمامهم ملامح المشروع بأكمله عندما يتم إنجازه. إن الأهمية العظمى للمشروع أخرستهم عن الكلام. ولم يستطيعوا إلا أن ينظروا أحدهم إلى الآخر فى دهشة.

قال ديليسبس بهدوء "سوف تنجز ! سوف تنجز كما عرفت دائماً أنها ستكون".

وبينما كان فى انتظار التقرير الرسمى للمهندس والذى قد يستغرق إعداده عدة شهور، سافر ديليسبس إلى القسطنطينية.

قال فرديناند " كل ماتبقى الآن هو موافقة تركيا".

ولكن أصغر العقبات قد تثبت أحياناً أنها الأصعب فى التجاوز. وكان عليه أن يكتشف صحة ذلك بالنسبة إلى الفرمان.

الفصل الثانى عشر

ألاعيب السياسة

شهد شهر فبراير عام ١٨٥٥ وجود ديليسبس فى القسطنطينية، يخطط حملته الدبلوماسية لإقناع تركيا بالموافقة على الفرمان ليقوم ببناء قناة عبر السويس. لقد كان هذا الوقت أسوأ وقت ممكن لكى يطلب مثل هذه المصلحة، لأن تركيا كانت مشتركة فى حرب القرم والتى نشبت بسبب غزو روسيا لتركيا لتكسب لنفسها منفذًا على البحر الأسود. وعلى الفور تيقظت بريطانيا العظمى وفرنسا إلى التهديد الذى يمثله الغزو الروسى، وارتبطا بسرعة فى حلف قوته غير مؤكدة، وذلك لمنح تركيا حمايتها المشتركة.

ورحبت تركيا ، التى لم يكن لديها قوات بحرية، بهاتين الحليفتين، ولم تكن بالتأكيد فى موقف يمكنها من إغضاب بريطانيا العظمى أو فرنسا.

وفى تلك الأثناء عرف ديليسبس أن إنجلترا لن تكون مؤيدة أبدًا لما أسماه سعيد باشا "عمل قناتك" ما لم يتم الإقناع بتغير الرأى العام.

والقسطنطينية، التى كانت دائمًا مدينة محورية متحررة من النزعات القومية، بدت كذلك بشكل مضاعف فى زمن الحرب، حيث كانت تعج بالمؤامرات السياسية لست دول. لم يذهب الكونت ديليسبس إلى الصدر الأعظم مباشرة، فقد كان ديليسبس نفسه متمرسًا تمامًا على المؤامرات السياسية. لقد أمضى الأيام القليلة

الأولى فى جمع المعلومات، ورؤية الأصدقاء القدامى، وحضور الحفلات، يطرح أسئلة وينصت. وكان هناك شيء واحد سره معرفته وهو أن الحرب شغلت وقت الجميع، وأن المناقشات التى كانت تدور لم تتطرق إلى ذكر السويس، سواء مع أو ضد. وشعر بالبهجة.

إنه لا يزال باستطاعته أن يصل إلى الصدر الأعظم قبل بريطانيا العظمى !

لو أن ديليسبس كان يمثل فرنسا بدلاً من مصر، فربما كان أكثر انشغالاً بعدد السفن البريطانية فى الميناء. وعلى أية حال فقد كان على يقين بأن السلطان وحكومته كانا واقعين بالكامل تحت نفوذ البريطانيين متمثلاً فى السفير البريطانى فى تركيا اللورد ستراتفورد دى رد كليف.

وعندما حان الوقت لمقابلة الصدر الأعظم رشيد باشا، تجشم العناء لتذكيره بأنه على الرغم من أنه فرنسى، فإنه لا يرتبط بأى شكل من الأشكال بالحكومة الفرنسية.

أعلن ديليسبس قائلاً " إننى لست هنا باعتبارى وكيلاً عن الحكومة الفرنسية، ولكن باعتبارى وكيلاً لصديقك العزيز والى مصر".

وافق رشيد باشا وقال "هذا جيد".

قال ديليسبس " أتيت كصديق لدولتكم أقدم فرصة للتقدم بشكل أعظم".

وعندما انتهى من قصته رأى أن رشيد باشا قد انبهر على أفضل وجه. مثل هذا المشروع سيكون له بطبيعة الحال قيمة عظيمة لتركيا. ولكن فى النهاية ذكر الصدر الأعظم للصديق المخلص له، فقال: " إنك تدرك أننا فى الوقت الحاضر لسنا فى وضع يمكننا من إغضاب حلفائنا الغربيين، فالأسطول البريطانى خير حائل لنا، يجعل مقاومتنا للعدوان الروسى ممكنة. يجب أن أتشاور أولاً مع اللورد ستراتفورد دى رد كليف قبل أن أعطيك إجابتى النهائية ".

قال ديليسبس " ولكن يمكنك محاولة إقناعه ليدرك ما ستعنيه موافقتك بالنسبة إلى العالم كله؟

ابتسم رشيد باشا وقال " لا أحد يا سيدى يستطيع إقناع اللورد رد كليف لتغيير عقله".

وكان ديليسبس يعرف حقيقة ذلك. فلا يوجد ممثل للتاج البريطانى فى جميع وزارات الخارجية أكثر تزمتًا من هذا المدعو اللورد رد كليف الذى رفض بعناد مجرد أن يتعلم لغة الدول التى يرسل إليها ليخدم مصالح بريطانيا. وكان مغرمًا بأن يقول:

" دعهم يتكلمون معى بلغة متحضرة إذا ما أرادوا أن أستمع إليهم. دعهم يتكلمون الإنجليزية".

وكان هذا يمثل عقبة لديليسبس نفسه، لأنه لا يحسن التحدث بالإنجليزية، ولم يكن دائمًا على يقين بأنه فهم فى يوم ما تلميحات المناقشات الدبلوماسية بتلك اللغة.

وأخيرًا عندما التقى باللورد ستراتفورد دى رد كليف، شعر بأن لقاءهما ترك أشياء كثيرة لم تستكمل. وكان ديليسبس قد كتب إلى اللورد من مصر، وعندما ذهب لمقابلة السلطان، بعد مقابلته مع الصدر الأعظم، اكتشف أن الدبلوماسى البريطانى قد رأى السلطان بالفعل. ولم يستطع السلطان أن يفعل شيئًا سوى أن يطيع أوامر السفير البريطانى. وحتى الحماسة الأولية لرشيد باشا سرعان ما بردت بعد محادثة مع اللورد رد كليف.

كان ديليسبس قد أخبر اللورد رد كليف فى أول لقاء بينهما: " فخامتكم لن يسمح بأن يقال إن إنجلترا التى أعلنت بكل إنصاف أنها وحدها أشهرت سيفها فى وجه روسيا لصالح المدنية وحرية البحار واستقلال تركيا، ستكون هى القوة الوحيدة التى تضع العراقيل فى طريق مشروع يدعم بالضرورة تحقيق المبادىء التى ستترتب على الحلف الإنجليزى النمساوى الفرنسى، والتى ستضمن تحقيق السلام فى الشرق".

حتى اللورد رد كليف ربما شعر بجاذبية هذا الرجل الفرنسى المبهج، ولذلك تم الترتيب للقاء آخر، حيث كتب رسالة قصيرة إلى ديليسبس متجنبًا صدامًا آخر، إذ قال:

" فى موقع مثل موقعى يكون للاستقلال الشخصى قيوده، ولا يمكن سوى الرضوخ من وقت لآخر للاعتبارات الرسمية" .

ورأى ديليسبس ، الذى كان يفضل دائمًا الاستقلال الشخصى على الاعتبارات الرسمية، أنه يضيع وقته فى القسطنطينية. ولم تكن هناك جدوى من البقاء فيها مدة أطول. يجب أن يعود إلى القاهرة، وأن يحاول إقناع الوالى بالسماح له بالشروع فى تشكيل شركته وأن يبدأ العمليات فى أسرع وقت ممكن، جاعلاً الموافقة الضمنية للصدر الأعظم تحل محل التوقيع الفعلى على الفرمان. ومن ناحية أخرى، ألم يقم المهندس البريطانى جورج ستيفنتسون وشركاؤه ببناء خط السكة الحديد من القاهرة إلى السويس بدون أن يطلبوا – أو يتلقوا – إذنًا من الباب العالى؟ لماذا إذن كان ضروريًا أن يحصل الوالى على هذه الموافقة؟

ذهب الكونت ديليسبس – متقززًا وليس محبطًا – إلى القصر فور وصوله إلى الإسكندرية. و قد وضع ست خطب افتتاحية قد تؤدى إلى إقناع سعيد باشا بالسماح له للعمل فورًا بدون الفرمان.

وأحيط علمًا بمجرد وصوله إلى القصر بأن الوالى سيراه حالاً.

أدرك ديليسبس عندما رأى وجه الوالى المستدير الممتلىء وقد علاه اللون القرمزى أن هناك شيئًا ما جعله يستشيط غضبًا. كان طربوشه المذهب قد جذب إلى أسفل كثيرًا حتى غطى جبهته. حتى إنه لم يرد على تحية "صديقه العزيز من فرنسا".

وقف ديليسبس ، الذى يعرف جيدًا كل حالاته المزاجية، متحيرًا وسأل:

" هل فعلت شيئًا خطأ يا صاحب الجلالة؟ ما هو".

دفع سعيد باشا طربوشه بوصة واحدة، أو ما يقرب من ذلك، ونظر شرراً إلى زائره، وقال بخشونة " ليس أنت".

وسأل ديليسبس " من إذن؟ وماذا حدث؟"

وبدا الوالى وكأنه أصيب بصدمة وقال " أتعرف رجلاً - قد رأيت رجلاً - هو اللورد ستارتفورد دى رد كليف؟ ".

رد ديليسبس " السفير البريطانى فى تركيا؟ ماذا عنه؟ "

قال الوالى " هذا الخطاب - كتب لى خطابًا - يحذرنى منك يا صديقى العزيز من فرنسا. إنه لا ينبغى أن أرمى بنفسى فى أحضان فرنسا".

قال ديليسبس " ولكننى شرحت بكل وضوح أننى عاملك يا صاحب الجلالة، ولست عاملاً لفرنسا".

قال الوالى " يبدو أنه لم يفهم إنجليزيتك الركيكة. حتى إنه ذكر الأسطول البريطانى الذى من مهامه حماية المصالح البريطانية فى أى مكان تتهدد فيه".

" فى تركيا؟ أو فى مصر؟ "

" إن خطابه مهذب للغاية. ولكنى أعتقد أنه يقصد هنا فى مصر.

إنه يذكر أن والدى كان قد خلع عن العرش مرة. وإذا كنت أحمق إلى هذا الحد - لكى ألقى بنفسى فى أحضان فرنسا .... ".

" أنت .... أنت ....؟" إنه لا يجب أن يخيفك؟ هل توقفت عن الثقة بى؟ إنك سوف تستمر فى المشروع ؟ قال ديليسبس ذلك وهو يتفحص بقلق تعبيرات وجه الوالى. وتنهد ببهجة وهو يرى ابتسامه.

أجاب سعيد " أكثر من أى وقت مضى. إننى أثق فيك أكثر بكثير مما أثق فى اللورد ستراتفورد دى رد كليف. ولكن لا يزال من الواجب عليك أن تحصل على موافقة الباب العالى. وبدون هذه الموافقة فإن قناتك ستكون محوراً لمشاحنات سياسية دائمة".

شعر ديليسبس شعور الأمير فى قصة خيالية، حيث يطلب منه أن يفعل المستحيل لكى يكسب حظوة لدى مولاه أو سيده.

قال ديليسبس " هناك سبيل واحد لفعل ذلك . يجب علينا أن نخوض الحرب فى بلد العدو".

سأل الوالى " ماذا تعنى؟ "

أجاب ديليسبس " يجب أن أذهب إلى إنجلترا على الفور يا صاحب الجلالة. على أن أكتشف السبب الحقيقى لرفض إنجلترا وفوق كل هذا، فإنها الدولة الوحيدة الأعظم تيقناً من النفع العائد من ممر مائى كهذا.

لابد أن تكون اعتراضاتها أكثر عمقاً من مجرد جنسية، عامل جلالتك، أو الخوف البريطانى الذى لا أساس له من أن الحكومة الفرنسية فى هذه اللحظة على حافة الانهيار".

الفصل الثالث عشر

بين التشكيك والتأييد

خطط ديليسبس حملته الدعائية بعناية قبل أن يغادر إلى إنجلترا . إنه يدرك أن المهمة لن تكون سهلة، ولكنه كان يأمل أن يكون قادرًا على إحاطة الشعب البريطانى بشأن السويس بطريقة قد تجعلهم لا يسمحون بالاعتراض الرسمى لدولتهم على القناة. ولكى ينجز ذلك هناك أشياء يجب عملها أولاً.

رجع ديليسبس إلى باريس فى أوائل الربيع، لأن معظم الأشياء التى يحتاج إلى عملها يمكن أن تتم بشكل أفضل فى فرنسا . يجب أن يحصل على المساندة – أو على توصية على الأقل – من بعض بيوت المال الشهيرة. يجب أن يجعل الصحافة البريطانية متفهمة للمشروع، ومن ثم فإنها قد تتوقف عن الإهانات الفكاهية المفتعلة التى كانت تبعث على الضحك على امتداد شهور. يجب أن يحصل على موافقة مشاهير الرجال فى جميع دول أوروبا .

كان ديليسبس ذا موهبة جيدة وذا قدرة طيبة على الاتصال فى الجانب الدبلوماسى والسياسى لمشروعه. فالإمبراطورة أوجينى .[٢٩] ، التى كان اسمها قبل الزواج "مونتجيو" كانت ابنة عمه، وكانت منذورة له، وتحت إصرارها أصبح الإمبراطور لويس نابليون مهتمًا بالمشروع، ولم يعد فقط بمساندته، بل وعد أيضًا بأن يعمل ساعة بعد ساعة بالفعل لإنقاذ المشروع من الفشل. إن السنوات التى أمضاها

ديليسبس فى الخدمة بوزارة الخارجية، واستعداده الفطرى لكسب أصدقاء ، أصبح لهما قيمة الآن أيضاً.

وسرعان ما صار أصدقاؤه وأقاربه يستجدون السماح لهم بامتلاك حصة فى القناة.

ورتب الإمبراطور بنفسه لديليسبس لمقابلة مندوبى صحيفة التايمز اللندنية فى باريس. وبسبب هذا التقديم ، فإن مندوب الصحيفة استمع بانتباه إلى ديليسبس، وكما هى العادة مع كثير من الآخرين انتهى اللقاء بالتصديق وأرسل المندوب قصة إلى صحيفة نشرت قبل أن يعبر ديليسبس نفسه القناة الإنجليزية الفاصلة بين فرنسا وإنجلترا Channel بأيام قليلة فقط. وكان جزء من قصة التايمز اللندنية اعتذاراً بشكل ما عن الفكاهات السابقة التى ظهرت فى الصحيفة.

" إن مشروع شق قناة عبر برزخ السويس بدأ يشغل قدراً كبيراً من اهتمام الجمهور، على الرغم من الاهتمام العميق المرافق لعملياتنا العسكرية فى حرب القرم، لدرجة أنه لا يعتبر أمراً خارجًا عن السياق أن نقول بضع كلمات عن هذا المشروع ...... إن شروط الفرمان تستبعد الفكرة الرائجة التى ترى أن الامتياز المذكور منح حصرياً لأحد الرعايا الفرنسيين، أو حتى لشركة فرنسية. لقد منح الامتياز لمجموعة من حملة الأسهم من أى دولة، يتم تأسيسها بواسطة الشخص المعين بالفعل باعتباره ممثلاً أو مفاوضاً للوالى .... ".

وتسلم مفاوض الوالى من الإمبراطور أيضًا خطابات تعريف لبيتى التمويل البنكيين روتشيلد وبارنج. وكان ديليسبس يعرف واحداً من إخوة روتشيلد فى إسبانيا، وعندما ذهب لزيارة المؤسسة فى باريس وجد نفسه وهو يستقبل بكل ود. وفى الواقع، يبدو أن المؤسسة كانت تواقة لأن تتولى شئون الأعمال التجارية الخاصة ببيع أسهم المشروع.

إن ديليسبس بالتأكيد لم يكن بارعًا فى النواحى المالية، وحتى لم يكن مهندسًا، ولكنه تفاخر بأنه منخرط فى مشروع يتطلب أعلى المهارات الممكنة فى المجالين معًا. من المؤكد أن بعضًا من ذوى الحنكة الخاصة كان يرشده. ولكن عدم خبرته كان جليًّا للعيان فى الأمور المالية. هو نفسه ذكر قصة زيارته للمسئولين البنكيين القائمين فى مؤسسة روتشيلد.

لقد شرح لرجال البنوك خطته للمشاركة العالمية فى أسهم قناة السويس، وقد وافقوا على الفكرة، وعرضوا خدمات بنوكهم لإصدار وتوزيع الأسهم. ويبدو أن كل الترتيبات لتمويل المشروع قد اكتملت.

ثم سأل ديليسبس بدون اكتراث:

" وماذا تريدون فى مقابل خدماتكم ؟ "

نظر البنكيون نحوه غير مصدقين تقريبًا. كيف يمكن لأى شخص أن يكون بهذه السذاجة؟

وعلق أحد الإخوة بصوت مصدوم " من اليسير إدراك أنك لست رجل أعمال. ستكون النسبة المعتادة ٥٪".

على الرغم من أن فرديناند لم يكل رجل أعمال ، فإنه تمكن بسرعة من حساب كم ستكون نسبة ٥٪ من مائتى مليون فرنك. ثم نظر حوله تجاه مبنى البنك القديم المتسخ، وقال:

" أتعنى أنك ستحصل على عشرة ملايين فرنك تستقطع من حملة الأسهم لدى، وذلك فقط مقابل الحق فى استخدام هذه الممرات القذرة المعتمة؟ لا ، شكرًا، احتفظ ببنكك. سنقوم بالإصدار بدونك. سأستأجر مكتبًا سأدفع فيه ١٢ ألف فرك شهريًا، وسيتولى الأمر".

وأكد له البنكيون فقالوا " لن تنجح أبداً إذا فعلت ذلك. سوف تحتاج إلينا إذا ما أردت أن يثق عامة الناس فى مؤسستك".

بيد أن ذلك بالضبط هو الأسلوب الذى اتبعه.

أجاب فرديناند " سنرى".

وقد شرح ديليسبس تفكيره الخاص حول موضوع التمويلات - وهو الرجل الذى لم يكن رجل أعمال - لأحد مديرى التنفيذ للشركة العالمية، حيث قال له فى خطاب:

" تسألنى عن الأسس التى أقترحها لوضع الجزء المالى للشركة. لدى فى هذه النقطة مبدأ واحد، وطيد الثبات للغاية، وهو مبدأ صحيح، ولكن الوسائل اللازمة لتنفيذه يجب أن تترك للزمن والظروف.

إن اعتراضى هو أنه فى كل الدول سوف يتمتع أكبر عدد ممكن من صغار حملة الأسهم بالمزايا الممكنة على أكمل وجه.

لنفرض أننى توصلت إلى ترتيب ما مع عشرة من كبار البنكيين لجعلهم أصحاب الامتياز، ماذا يمكن أن يحدث؟ إنهم سيقترحون تقسيم هذه الملايين العديدة، وسوف يوزعونها حينئذ على "حشد من الناس عديم القيمة" دون أن ينفقوا بنسًا واحداً وبأقساط عالية، حصص بخمسمائة فرنك، مع الاهتمام بأن يكون معروفًا، مثلما هى الحالة الراهنة ، أن هذه الحصص تنتج فائدة فى يوم ما ٢٠٪ أو ٣٠٪.

لماذا لا نذهب مباشرة إلى عامة الناس؟ إن المقرضين الفرنسيين الآخرين يوضحان ماذا يمكن عمله برأس المال الصغير. ستقول بأن شركة القناة لن توحى بالثقة التى تتمتع بها حكومة راسخة قوية.

وإجابتى هى أن اتصال البحر المتوسط والمحيط الهندى، وما ينجم عن ذلك من نتائج هائلة ، يمكن أن يعلن بوضوح أمام عامة الناس بأن جميع من لديهم أحكام

مسبقة سوف يقتنعون بأنه لا توجد مضاربة فى الأوراق المالية يمكن أن تقدم فرصة أحسن للربح مقارنة بأولئك الذين يحصلون على جزء من أسهمها، وعندما يكتشف أن زبدة الربح لن تقع فى قبضة قلة من المضاربين، فلن يكون هناك نقص فى عدد حملة الأسهم".

وكان من اللازم لنشر هذه المقولة المقدسة فى إنجلترا، أن يقضى ديليسبس أولاً فصلى الربيع والصيف من عام ١٨٥٥ فى لندن، ثم ينتقل داخل الأراضى البريطانية مع ابنه شارل كمرافق له. وكانت الرحلة إلى انجلترا حملة دعائية بالدرجة الأولى. ربما كانت معرفته باللغة الإنجليزية مهتزة، ولكن معرفته بالتفكير البريطانى كانت خارقة. كان يعرف بدقة شديدة أن الحكومة البريطانية نفسها تحكم من قبل الشعب البريطانى، وإذا ما استطاع أن يكسب رضا الشعب، فإنه ينبغى على الحكومة بالضرورة أن تعطى موافقتها أيضاً.

إن السنوات التى قضاها ديليسبس فى وزارة الخارجية جعلت له أصدقاء فى كل الدول، ولم تكن أمامه أى عقبة عند استقباله فى المجتمع البريطانى .... فقد التقى بكل الناس المناسبين - قابل الملكة وزوجها فى حفلة عشاء، ووجد أنهما من بين أكثر مستمعيه المهتمين. حتى أن الأمير ألبرت أخذه إلى قاعة الدراسة الملكية لعمل حوار خاص حول الموضوع المفضل لديليسبس.

ولكن رئيس وزراء الملكة لم يكن مهتمًا ببساطة. ومن خلال صديق للسيدة بالمرستون، أتيح لديليسبس لقاء سأل فيه رئيس الوزراء مباشرة عن ماهية اعتراضاته. وكان اللورد بالمرستون .[٣٠] ، قد بلغ السبعين من العمر، وملىء بالذكريات عن تلك السنين التى كانت فيها إنجلترا وفرنسا من ألد الأعداء. وكان باستطاعته تذكر أشكال الغيرة بين الدولتين حول كسب النفوذ الذى تسعى إليه كل منهما فى الشرق الأوسط. وكان يظهر مشاعر الصداقة والمجاملة لديليسبس، ولكنه كان يصم أذنيه تجاه جاذبيته وقدرته على الإقناع. فقد قال بصراحة:

" إننى لا أتردد فى أن أخبرك عن ماهية اعتراضاتى. إنها تكمن فى المقام الأول فى الخوف من رؤية العلاقات التجارية والبحرية لبريطانيا العظمى تتكدر بفتح طريق جديد، وهو الطريق الذى سيجردنا - فى حالة فتحه للملاحة أمام كل دول العالم - من المزايا التى نملكها الآن.

وسأعترف لك أيضًا أننى أنظر بقلق إلى المستقبل المشكوك فيه فيما يتعلق بفرنسا - وهو مستقبل يلزم لكل رجل دولة أن ينظر إليه من جانبه المظلم، مستقبل غير محدد كما هو حال ثقتنا فى ولاء وإخلاص الإمبراطور، ولكن عندما يرحل فإن الأمور قد تتحول".

هذه هى المبررات التى بدت غير حقيقية بالنسبة إلى ديليسبس، فحيث تفسح أى دولة المجال للرغبة فى أن تعيق تقدم كل دول العالم، وذلك لمجرد أن تحافظ على سيطرتها الراهنة على البحار، فإنها تبدو أنانية بالقدر الكافى للحط من النزاهة الأخلاقية لبريطانيا العظمى. كان سعيد باشا قد تبنى وجهة نظر مضادة كلية لوجهة نظر بريطانيا العظمى. وقد أحب إصرار ديليسبس على الحقوق المتساوية لجميع الدول وعدم منح أفضلية لأى دولة، ولا حتى مصر. بيد أن مصر/ سعيد باشا سوف تزداد قوة بطبيعة الحال، بينما ستتخلى بريطانيا العظمى عن القوة التى تتمتع بها الآن.

ومع ذلك ، فإن المؤسس الذى لا يكل للقناة لم ييأس. لقد أخذ مشكلته مباشرة إلى الشعب الإنجليزى. ها هو الفرنسى النبيل والصديق الحميم لحكام دول عديدة، يهين نفسه بالسفر من بلدة إنجليزية صغيرة إلى أخرى طوال الصيف. ولم يكن يحاول بيع الأسهم. ولم يكن يطلب المال. كان يطلب من كل البريطانيين تقريبًا أن يعبروا عن وجهات نظرهم علنًا، سواء كانوا مع أو ضد إنشاء قناة بحرية فى مصر.

كان هو وابنه شارل يذهبان إلى بلدة غريبة، ويعرفان أسماء القياديين من مواطنيها، وبعد ذلك يلتقيان برجالها المحترمين، وبعد أن يشرح لهم ديليسبس سبب

وجوده فى البلدة، يستدعى الرجل الموقر - الذى هو العمدة عادة - لكى يكون رئيساً للاجتماع الذى يكون على وشك عقده لكى يشرح لمواطنى البلدة ما الذى يجرى عمله فى السويس. ولم يكن هناك أجر على المحاضرة.

لم يسبق أن قام أحد بمجهود أشق من ذلك لتغيير الأفكار، ولا بهذا القدر من النجاح منقطع النظير. وفى كل بلدة وجد ديليسبس طلاباً. وبعد المحاضرة كان يعكف على أوراقه ليعد تصريحاً يعطيه للصحف المحلية صباح اليوم التالى. وقد يطلب مئات عدة من نسخ الصحيفة ليأخذها معه لتوزيعها فى البلدة التالية قبل المحاضرة المقبلة.

ولم يقم أى رجل إنجليزى يسعى للوصول إلى البرلمان بمثل هذا العمل الشاق من أجل الحصول على الأصوات. وسرعان ما أصبح الحديث عن القناة فى بعض البلدات أكثر حتى من الحديث عن حرب القرم والمسألة الشرقية.

وكان أهل السخرية لا يزالون موجودين فى الأفق - ويبدو أن صحيفة الديلى ميل، التى يدعمها بإخلاص اللورد بالمرستون، انزعجت مما كان يجرى فى إنجلترا ذلك الصيف.

نشرت الصحيفة فى افتتاحيتها مقالة جاء فيها " إن أدب الخيال لم يمت فى بلد الإسكندر دوماس Alexander Dumas ,[٣١] ، وفرديناند ديليسبس".

وتابعت الصحيفة قولها " إن أكثر الرومانسيين شططاً يعتبرون أطفالاً إذا ما قورنوا بالمكتشف العظيم لبيلوز جديدة، محاولاً اقناع مستمعيه بأن ٢٥٠ مريضاً بالتلهف من الأوربيين مع ٦٠٠ مجند عربى سوف ينجزون هذا المشروع الغبى بدون أموال، وبدون مياه، وبدون أحجار ...." .

وقبل أن ينقضى الصيف كان ديليسبس قد عرف أكثر من اللازم حول النفسية البريطانية. فالرجل البريطانى العادى كان يخشى غالبًا من استنتاجاته الخاصة. وكان يحتاج إلى دليل حاسم على أنه على صواب فى تصديق شخص آخر. وإذا ما

كان ديليسبس يأمل فى تغيير العقلية البريطانية نحو أسلوب التفكير ، فيجب عليه أن يكون قادرًا على تقديم دليل قاطع على أن المشروع لم يكن ممكنًا فحسب، بل كان عمليًا أيضًا.

وقد سأل ديليسبس نفسه مرة بعد مرة " عدد كبير من الناس فى إنجلترا يقولون بأن القناة لا يمكن أن تبنى. حتى رئيس الوزراء يقول ذلك، وهو ما يقوله أيضًا جورج ستيفنسون الذى يعرف الهندسة. وأنت تقول إنها ممكنة. ولكن كيف نعرف أنك على حق؟

وفكر ديليسبس فى جاليليو . " ما الذى يجعلك تعتقد أن الأرض تتحرك؟ " هل يمكنك إثبات ذلك؟ "

حسنًا، وكان على ديليسبس أن يعمل من أجل التوصل إلى إثبات ذلك. وفى أكتوبر عاد إلى باريس ليجمع أدلته.

الفصل الرابع عشر

الأدلة الدامغة

دعا ديليسبس إلى اجتماع فى باريس فى ٣٠ أكتوبر. كان قد مضى أقل من سنة منذ ذهب فى مهمته فى مصر. ولكن التقدم السريع الأول فى خططه يغوص فى الرمال الآن فيما يشبه الهزيمة بالنسبة إلى معظم الناس، ولكن ليس بالنسبة إلى واحد من المثابرين العنيدين مثل فرديناند ديليسبس. فالعقبات كانت مجرد حواجز يمكن القفز عليها، وكان على يقين بأنها جميعًا سيتم تخطيها فى نهاية الأمر.

وفى منزله رقم ٩ شارع ريشيبانس فى باريس اجتمع بالرجال الذين يفترض أن يشكلوا اللجنة العالمية لقناة السويس، وهى لجنة من المهندسين العالميين الخبراء. وأصر الوالى على أن هذه اللجنة يجب أن تقوم باستكشافات وتكتب تقارير بأرائها زيادة على أراء مهندسيه المصريين. وعندما اقترح ديليسبس فى البداية " كلا من لينانت بك وموجل بك اعترض سعيد باشا وسأل:

" أتستطيع دائمًا أن تحصل على مهندسين يقبلان؟ "

وأجاب ديليسبس " إن قبولهما سيقوى مركزنا حتمًا"

والآن لم يكونا يتوقعان اثنين فقط، بل اثنى عشر مهندسًا يقبلون المشاركة فى اللجنة ، وجاء المهندسون - السيدان رينود وليسو يمثلان فرنسا، والسيد تجريللى من النمسا، والسيد رندل من إنجلترا، والهركونراد مفتش هيئة المياه ورئيس جمعية

المهندسين المدنيين من هولندا، والمستشار الخاص لينتز من بروسيا، ولينانت وموجل اللذين حضرا من مصر. وكانوا جميعًا يرتعدون من برودة مناخ باريس فى أواخر أكتوبر.

واستمع المهندسون بإنصات إلى تقريرى لينانت وموجل بك، وطلب ديليسبس منهما أن يعطياه بيانًا بتكاليف حضورهما إلى باريس، لأن كل النفقات كانت ستدفع من جانب الشركة المنظمة الجديدة، ولكنهما هزا رأسيهما بما يفيد الرفض. إذ قالا:

" رغبنا فى المجىء. رغبنا فى أن نعرف ما الذى يحدث فى السويس".

وأخبرهما ديليسبس " وأنتما على وشك معرفة ذلك. وقد خصص الوالى بكل كرم مبلغًا كافيًا للشركة لعمل مسح شامل للمشروع بأكمله. هل بإمكانكم أن تكونوا مستعدين للسفر إلى مصر خلال أسبوع من يوم غد؟ ".

وغادروا من مرسيليا فى الثامن من نوفمبر. عيد ميلاد آخر لديليسبس. وهل يمكن أن تبدأ القناة مع حلول عيد ميلاده التالى؟ . عندما يبلغ المرء سن الخمسين، فإنه لا يستطيع أن يضيع الوقت فى انتظار عقيم عديم الجدوى. بل لا يمكنه أن يضيع وقته فى مناقشات أكثر عقمًا مع اللورد بالمرستون وستراتفورد ودى رد كليف.

ومع حلول العام الجديد كانت عمليات الفحص والاستكشاف قد انتهت. وفى اليوم الثانى من السنة الجديدة ركب ديليسبس بنفسه، مرتديًا ثيابًا شرقية مسدلة، على رأس فريق المهندسين العالميين ، وهم يجوبون شوارع الإسكندرية فى استعراض على ظهور الجمال. وكان الوالى فى انتظارهم فى ظلال المسلتين العاليتين اللتين تعرفان باسم مسلتى كليوباترا ، وتقعان مباشرة إلى جوار القصر الأميرى. وعندما رآه فرديناند واقفًا هناك أمر سائس الجمل بأن يتوقف. وبضربة خفيفة من سوط السائس رقد الجمل على ركبه، ونزل ديليسبس إلى الأرض بحذر.

وناداه الوالى قائلاً " ما الخبر يا صديقى؟ ما الخبر؟ ".

وابتسم الكونت ابتسامة عريضة وقال " يمكن عملها. الجميع موافقون . يمكن عملها، وستكون".

وضحك سعيد برقة وقال " لقد عرفت . لقد أخبرتنى ابتسامة وجهك، تبدو مبتهجًا بالحياة فى هذه السنة الجديدة يا صديقى العزيز".

وأقر ديليسبس بذلك قائلاً " مبتهج للغاية" .

وفى ذلك المساء عرض المهندسون ما توصلوا إليه. وسيكون تقريرهم الرسمى جاهزًا فيما بعد. ولكن أهمية موافقتهم جعلت تقريرهم يبدو وكأنه نهائى.

" سوف نضع مبرراتنا بقناعتنا الجماعية فى تقرير مفصل، معززًا بالخرائط والرسومات البيانية لخليجى السويس وبيلوز، مع الخطوط العريضة التى توضح سلامة التربة ...... إلخ. وهذا التقرير المطول والمفصل سيستغرق إعداده عدة شهور. وإلى أن يتم ذلك نرجو أن نعلم جلالتكم بالنتائج التى توصلنا إليها:

١- الطريق من عند الإسكندرية غير مقبول من وجهة نظر فنية واقتصادية.

٢- الطريق المباشر يقدم كل التسهيلات للقناة ذاتها، إذا ما أضيف إليها فرع إلى النيل، ولا يمثل أكثر من الصعوبات العادية لإنشاء الميناءين.

٣- ميناء السويس سيقام فيه مرسى للسفن آمن وكبير، يمكن استخدامه فى جميع أحوال الطقس، بعمق حوالى ثلاثين قدمًا فى الماء على امتداد ميل من الشاطىء.

٤- ميناء بيلوز ، طبقًا للمخطط المبدئى ، والذى وضع فى أقصى طرف من الخليج، سيتم إنشاؤه على بعد حوالى سبعة عشر ميلاً إلى الغرب، عند نقطة عمق الماء فيها خمسة وعشرون قدمًا على امتداد ميل ونصف من الشاطىء، حيث يكون الرسو فيها جيدًا، ويكون الخروج منها سهلاً.

٥- تكلفة القناة والأشغال المرتبطة بها لن تتجاوز رقم ثمانية ملايين من الجنيهات، حسب المخطط المبدئى لمهندسى جلالتكم".

ولو كان الوالى يخفى شكوكًا مكتومة فى حكمة صديقه، فقد زالت الآن كلية. ونظر إلى ديليسبس ورأى دموعًا فى عينيه. إنها دموع الفرح، واندفع سعيد باشا نحوه وقبله، قبلة صاخبة مدوية أولاً على خده ثم قبلة أخرى على خده الثانى، قابضًا عليه من الكتفين. وبدأ الاثنان فى الضحك، وانضم إليهم جميع الحاضرين.

والتفت الوالى إلى ضيوفه من المهندسين الأجانب وقال " أيها الرجال المهذبون إنكم تعلمون ماذا تعنيه رؤية حلم كبير يبدأ فى أن يصبح حقيقة. والآن وكمكافأة لكم جميعًا لقيامكم بعمل جيد، فإنكم ستأكلون الليلة على مائدتى - لكل واحد منكم الطعام المفضل فى بلده - إن طباخينا كانوا مشغولين طوال اليوم.

إن عشاءهم سيثبت أن القناة يمكن أن تخدم العالم بأكمله. ولكن أولاً، دعونا جميعًا نتناول القهوة معًا".

وعندما تجمعوا أخيرًا فى قاعة الطعام الرسمية، وجد كل منهم طعامه الوطنى: خنزيرًا بريًا من النمسا، وفطائر من فيينا، وضأن وبطاطس أيرلندية من بريطانيا العظمى، وجبنًا من هولندا، ومشمش وتمرًا وبطيخًا وشمامًا من مصر ونقانق وتفاحًا معلبًا من بروسيا، ونبيذًا وبازلاء خضراء طرية وفاصوليا خضراء وسكر غزل البنات من فرنسا.

وأخذ الوالى بسعادة عينة من كل طبق قبل تقديمه لضيوفه - وعندما قدم الطعام للجميع ، نظر فرديناند إلى مضيفه وسأل : " ماذا ؟ ألا توجد مكرونة؟ ".

الفصل الخامس عشر

الوالى يدخل التاريخ

كان أمرًا مدهشًا أن يحدث تحول كبير فى التفكير السياسى البريطانى خلال سنة واحدة. وكان هذا التحول واضحًا بصفة خاصة فيما أطلقت عليه الصحف اسم " المسألة الشرقية" .(٣٢) ، وعندما عاد ديليسبس إلى إنجلترا فى ربيع عام ١٨٥٦، وجد الطريق أكثر سهولة مما كان يأمل. فقد كان الساخرون المتفكهون يكتبون فى كل شىء ما عدا موضوع السويس الذى هجروه كهدف لهجومهم.

وأصبح الناس فى المراكز العليا ومن النابغين يسألون أسئلة جدية حول إمكانية شق القناة عبر برزخ السويس؟.

إن ما كان فى البداية موضع اهتمام الصحف البريطانية باعتباره مشروعًا جنونيًا لفرنسى مغامر، صار يبدأ الآن فى الظهور لا باعتباره أقل جنونًا، بل باعتباره ممكنًا بالفعل. وحتى بيوت التمويل الكبرى فى أوربا بدأت فى الاهتمام بديليسبس. وقد ذهبت لجنة من المهندسين العالميين إلى موقع القناة بأكبر قدر من الحيطة والحذر، وتوصلت بالإجماع فى تقارير أعضائها إلى أنها عملية، كما توصلت حتى إلى أين وكيف يجب أن يتم شقها. وقد قدم إمبراطور فرنسا مباركة للمشروع. ولكن الأعظم من كل ذلك أن أحوال الشركة وممتلكاتها يرجع الفضل فيها إلى الحماسة المفرطة والثقة التى تصل إلى حد التعصب تقريبًا لدى مؤسسها.

وكما كان الرأى العام يتغير فى إنجلترا بسرعة، كان من الواضح جليًا أنه بدأ الآن يدوى بالتأييد للقناة، لدرجة أن رفض الحكومة البريطانية للمشروع بدا وكأنه قضية عامة مخزية تقريبًا أمام أولئك الذين أصبحوا مساندين له.

ولكن اللورد بالمرستون، الذى أصبح الآن فى سن الثمانين، لم يتغير قيد أنملة. وعندما وقف أحد أعضاء البرلمان ليسأل عن رأى الحكومة فيما يتعلق بالاستثمار فى السويس، أجاب اللورد بالمرستون بكلمات كانت تضليلاً للعضو من ناحية وإهانة لمؤسس القناة من ناحية أخرى، فقد قال:

" إن حكومة صاحبة الجلالة لا تستطيع بالتأكيد أن تأخذ على عاتقها استخدام نفوذها مع السلطان لإغرائه لمنح إذن بالسماح ببناء هذه القناة ، لأنه على امتداد الخمس عشرة سنة الماضية استخدمت حكومة صاحبة الجلالة كل ما لديها من نفوذ لمنع المشروع من أن يدخل مجرى التنفيذ. إنه مشروع أعتقد أنه ، من حيث سمته التجارية ، قد يحتل مكانة بين المشاريع الفقاعية العديدة التى كانت تدلس على الرأسماليين السذج. وإذا كان صديقى المبجل عضو برستول سيأخذ بنصيحتى ، فإنه ليس لديه شىء يفعله بشأن المشروع المطروح".

وكان ديليسبس غاضبًا بطبيعة الحال. ولكنه لا يستطيع أن يتحدى بسهولة رئيس وزراء بريطانيا فى مبارزة علنية. ولكنه فعل أحسن شىء، وهو ما يلى : فقد كان جورج ستيفنسون، وهو المهندس الذى لم يوافق على القناة، قد بنى من قبل خط السكة الحديد عبر السويس، ولذلك لم يكن يرغب فى منافسة من الماء. وكان حينئذ عضواً فى البرلمان. وعندما وقف ستيفنسون ليقول بأنه يتفق مع كل شىء قاله رئيس الوزراء، أرسل له ديليسبس مذكرة بسرعة. وتساءلت المذكرة عما إذا كان السيد ستيفنسون كان يعنى أن يتضمن كلامه أن كاتب المذكرة كان دجالاً يسعى إلى نهب جمهور البريطانيين، وطلب فى المذكرة الرد على هذا التساؤل مع عودة حامل المذكرة، أو من خلال صديق يمثله كظهير له.

ولم تكن لدى ستيفنسون رغبة فى مقابلة الفرنسى المحارب فى أى مبارزة. ورد بسرعة بأن لا شىء كان أبعد عن ذهنه من إضمار أى شىء شخصى ضد ديليسبس، الذى يعترف كل إنسان بصفاته الرائعة باعتباره روح الأمانة. ربما أزعج ديليسبس قليلاً رد الرجل الإنجليزى، لأن مبارزة مع ستيفنسون قد تكون إعلانًا جيداً للغاية لصالح قناته.

وأخيراً انتهت حرب القرم، وصارت المسألة الشرقية تناقش برصانة فى الصحف البريطانية، حيث كان البعض يؤيد مشروع السويس والبعض الآخر يهاجمه. وكان الفرمان لا يزال غير موافق عليه من تركيا على أية حال، ولكن اعتراضات اللورد بالمرستون تغيرت إلى حد ما، على الرغم من أن الاعتراضات كانت لا تزال قوية كما كانت من قبل. وبدلاً من الاعتراض دفاعًا عن السيادة البحرية لدولته، فقد بدأ الآن يظهر فجأة اهتمامًا بمصالح تركيا والمخاطر التى قد تكمن وراء قناة تربط بين البحرين فى مصر.

وكانت الإمبراطورة أوجينى لا تزال صديقًا مخلصًا للمشروع، وقامت هى وزوجها الإمبراطور بزيارة فى مناسبة اجتماعية إلى صديقتيهما الملكة فيكتوريا.(٣٣) وزوجها الألمانى. وخلال الزيارة اقنع إمبراطور فرنسا الملكة بالموافقة على سياسة عدم التدخل، وأن تسمح لتركيا أن تقرر بنفسها ما إذا كانت توافق على الفرمان أو ترفضه. وقد فسر ذلك من جانب ديليسبس المتفائل دائمًا باعتباره موافقة فعلية على الفرمان، بما يسمح للعمل بأن يبدأ فى السويس. ولكن عندما استشار سعيد باشا مستشاريه القانونيين، فإنهم لم يشاركوا ديليسبس فى تفاؤله، وأصروا بأن بدء العمل بدون موافقة موقعة من تركيا سيفتح الباب لكل أنواع المشاجرات السياسية.

ومع ذلك، كان ديليسبس يحرز تقدمًا بالتأكيد، حتى على الرغم من أن العمل الفعلى لم يكن قد بدأ بعد. ولكن إذا لم يتمكنوا من البدء عاجلاً، فإن المساهمين

الجدد سيصبحون قلقين، وأن مبيعات الأسهم اللاحقة قد يكون تحقيقها أصعب بكثير للغاية.

إن البناء الناجح للقناة كان فى الحقيقة تشابكًا لعدد لا يحصى من العناصر المختلفة للغاية، ولكنها كانت تقريبًا عناصر متعادلة – مثل التمويل والإدارة والتخطيط والبعد السياسى والهندسة. إلا أن العنصر الأكثر أهمية، بعد الثقة ذاتها، كان هو الصداقة المتينة بين الكونت الفرنسى والوالى المصرى.

ولو كانت هذه الصداقة قد توترت قليلاً فى أى مرحلة من مراحل بناء القناة، لما كانت هناك قناة السويس. فالضغوط التى وقعت على هذه الصداقة كانت هائلة. وقد حدثت أشياء كثيرة بالفعل. فالتهديدات البريطانية – التى ذهبت بعيداً إلى حد التهديد بخلع سعيد باشا – ربما كانت قد أخافت الوالى لسحب تأييده خوفًا من أن يفقد عرشه. ولكنه لم يكن ليخدع بسهولة، ومن ناحية أخرى كان يمكن ، فى مراحل عديدة، أن يخون ديليسبس التضحية لصالح إما فرنسا وإما إنجلترا.

فدولة ضعيفة مثل مصر، التى تقع فى مفترق طرق الممرات العالمية، كان يمكن ألا تأمل مطلقًا فى أن تكون دولة مستقلة تمامًا. ولكن ديليسبس حفظ حقوق مصر بإخلاص موثوق فيه. وكان الرجلان – المعلم السابق والتلميذ السابق – مرتبطين بوفاء ذى طبيعة لا شرقية ولا غربية ، وهو شىء نادر كما هو جميل أن يبدوان كشخص واحد لا يختلف أحدهما عن الآخر. ولا يعنى هذا أنه لم توجد اختلافات بينهما مطلقًا. فقد كان هناك الكثير منها – ولكن كلا الرجلين لم يسمحا للاختلافات أن تؤثر فى المشاعر الحميمة والصداقة التى يشعر بها كل من منهما إزاء الآخر.

وكان المشروع مستحوذًا على كليهما منذ اللحظة التى اتفق فيها على بنائه، كما كانا قد قررا ألا يسمحا للتهديدات الهامسة أو للشائعات العلنية بأن تكون عائقًا.

وفى الحقيقة، كان حجر الزاوية الرئيسى فى قناة السويس هو هذا الاحترام وهذه الثقة بين الرجلين – أحدهما شاب وثانيهما تجاوز وسط العمر. وكان مما يدعو

للأسف الشديد لدى ديليسبس ألا يعيش سعيد باشا ليرى أن القناة قد تم بناؤها. ويجب أن يكون الوالى موجوداً إلى جانبه عند الافتتاح الكبير. لقد كسب كلاهما الحق فى أن يقفا أمام الحشود، ويشاهدان اللحظة التى يمتزج فيها البحران، وعندما يظل الإنسان مخلصاً بشدة لحلمه، فلابد وأن يسمح له بمشاهدته وهو يتحقق.

كان ديليسبس عند موقع القناة فى السويس فى أواسط شهر يناير عام ١٨٦٣، عندما وصله رسول جاء من الإسكندرية يحمل رسالة بأن صديقه سعيد باشا مريض بشدة بالحمى، وأنه طلب ضرورة إخباره بمرضه. وفوراً طلب ديليسبس إحضار فرسه لأنه يجب أن يذهب فى أسرع وقت ممكن إلى الإسكندرية ولكنه وصل متأخراً. وعندما دخل القصر أخبروه بأن سعيد باشا قد مات وتم دفنه. وكل ما عرفه جيداً هو أنه لن يكون له صديق مثله أبداً.

وطلب ديليسبس من زوجة سعيد الحزينة أن تعطيه مفتاح المقبرة حتى يمكنه أن ينظر مرة أخرى إلى وجه صديقه. وعند المقبرة طلب من حراس القصر الذين رافقوه أن يبقوا فى الخارج. لقد رغب فى أن يكون بمفرده مع صديقه.

وقف ديليسبس أمام الحائط الحجرى الخشن وأخذ يبكى بصمت. إنه لم يشعر بمثل هذا الحزن منذ وفاة أجاثى وولديه الصغيرين. ومرة أخرى بدا له أن الله كان قاسياً بلا معنى.

فسعيد الذى يصغره بسنوات عديدة، كان ينبغى أن يعيش مدة طويلة، طويلة لبرهة، وكان حينئذ سيرى التحقق النهائى لحلمهما ، ويستمتعان بنتائجه لسنوات عديدة. كان ينبغى أن يعيش حتى يستطيع أن يجنى المجد الذى كسبه بثقته وكرمه. ليس من المبهج أنه قد مات.

وأخذ ديليسبس ينتحب عندما لمس التابوت الحجرى الملكى، وشعر آنذاك كما لو أنه يعد وعداً مقدساً، وقال " سعيد، لقد أخبرتنى ذات مرة أنك تتمنى أن يدخل اسمك

التاريخ كواحد من حكام مصر العظماء، وأنا أعدك أن ذلك سيتحقق كما تمنيت ذات مرة".

وخرج ديليسبس من المقبرة وأغلقها والدموع تعشى بصره وركب ببطء عائداً إلى القصر، وكان رئيس الخدم الرسمى لسعيد راكبًا إلى جواره. وفى البداية لم يكن فرديناند قادراً على التحدث مع مرافقه. ولكن بعد برهة تحدثا عن الوالى كما تذكره كل منهما.

سأل رئيس الخدم " أتذكر عصا الخيزران التى أعطيته إياها، كانت معه دائمًا حتى النهاية، كان يفضل تلك العصا على غيرها".

وابتسم ديليسبس وتذكر فجأة وقال " لقد كان لديه اثنتان من العصى . ووضعنا نوعًا من الرمز بشأنهما . فعندما أكون معه ويأتيه زائر، فإنه إذا كان يريدنى أن أبقى كان يضع عصاى إلى جانبه، أما إذا أرادنى أن أنصرف، كان يضع العصا الأخرى، وكان على أن أستأذن وأذهب".

كانت هناك ذكريات سعيدة عديدة حول سعيد. لا يوجد أحد أسرع منه فى تقلب حالاته المزاجية، كان يبدو طفلاً مدللاً فى بعض الأوقات، وملكًا ذكيًا فى أوقات أخرى، وصديقًا حميمًا عادة، ولكنه كان أحيانًا يأمر أعز صديق له بالخروج عن حضرته بغضب. كلاً من الحاكم ووكيله كانا مغرمين بالضحك، ولطالما تقاسما النكات كما تقاسما الهموم السياسية.

قال فرديناند قاطعًا أفكاره فى النهاية " أتعجب أين هذه العصا الآن. إننى أود الحصول عليها".

وعندما رجعا إلى القصر سأل زوجة الوالى عما إذا كان يمكنه الحصول على العصا وأعطتها له بكل سرور، وهى تعلم فى قرارة قلبها أن من بين مئات، بل آلاف الأشخاص الذين عرفوا سعيد، لم يكن هناك سواها وفرديناند ديليسبس اللذين سيفتقدان الوالى إلى الحد الأكثر توقداً.

وظل ديليسبس يكرر مرة بعد الأخرى قوله " لو أن سعيداً عاش فقط حتى يرى القناة وقد انتهى العمل فيها . لقد أعاننا فى كل مشكلاتنا . كان يجب أن يحصد الجوائز".

كم كانا كثيراً ما يمعنان الحديث معًا حول القناة - أول صفقة مبيعات للأسهم كانت ٢٥ ألف سهم فى أسبوعين بسعر ألف دولار للسهم ! لم يصدق كلاهما ذلك بالمرة. واليوم الذى جاء فيه جميع موظفى الشركة من باريس إلى الإسكندرية للتوسل إلى الوالى ليدعهم يبدأون حفر القناة بدون الفرمان، ولكن محاميى سعيد منعوهم من ذلك. وفى النهاية أثار فرديناند سابقة للمحامين أدت إلى جعل القانون إلى جانبهم على الرغم من ذلك. فبريطانيا لم تطلب إذنًا من تركيا عندما بنت خط السكة الحديد عبر السويس، خط حديد جورج سيتفنسون. لماذا يتوجب على مصر الآن أن تحصل على إذن؟

على الأقل كان سعيد يقف إلى جانب ديليسبس فى ذلك اليوم الخامس والعشرين من شهر إبريل ١٨٦٠ عندما تجمع عند بيلوز المهندسون والعاملون وعدد قليل من المؤيدين المخلصين بعضهم من دول أجنبية، حيث قرر ديليسبس أن يطلق عليها اسم بورسعيد بدلاً من بيلوز، وهو الأمر الذى يعنى أن يحصل صديقه العزيز على المجد الذى يستحقه بجدارة.

فى ذلك اليوم، وتحت سرادق حيث كان سعيد يجلس مع الآخرين ، قام أحد العمال بتسليم مجرف إلى فرديناند، وبينما كان ينظر إلى أسفل إلى رمل الصحراء الذهبى، ثم إلى أعلى نحو الجبال الحمراء فى الأفق، حاول أن يفكر فى مقطع مناسب من الإنجيل لإهدائه إلى هذه التربة التى جاء منها الإنجيل نفسه. وكان المقطع الوحيد المناسب الذى تذكره أحد مقاطع ميلتون:

" البحر غير المحصور، بلا حدود، بلا أبعاد، حيث يفقد الطول والعرض والارتفاع والزمان والمكان".

ثم ضرب المجرف عميقًا فى الرمل الذهبى، وقذف الرمل عاليًا فى الهواء، وراقب الرمل وهو يسقط إلى أسفل، وقد تخللته الشمس الآن فصار لونه ورديًا، وكان يسمع صوت سعيد يعلو فوق أصوات الآخرين وهو يهلل، وحقًا فإن هذه اللحظة ستكون دائمًا عالقة فى الذاكرة، وستظل كذلك لدى كل منهما.

ولأنه كان مستحيلاً على فرديناند أن يبدأ أى عمل عظيم بدون أن يطلب مباركة الله له، فقد رفع صلاته بصلاة - صلاة مسيحية لرب مسيحى لكى تسمعها آذان غير مسيحية:

" لعل الرب يبارك بناء هذه القناة العظيمة، ويرى اكتمال بنائها من أجل خير العالم وباعتبارها وسيلة للسلام".

وفى البدايات الأولى للعمل، سار كل شىء على ما يرام. فقد جند سعيد العمال، حيث اتفق كل من سعيد وديليسبس على أن الرجال يمكن تجنيدهم للحرب من أجل القتل، وكم هو أفضل كثيرًا أن يتم تجنيدهم لعمل يعنى السلام والازدهار لهم. وكان غالبًا ما يسمع الرجال يغنون أثناء العمل فى كل القطاعات السبعة على الطريق المائى الطويل.

آلاف الرجال يغنون معًا ويعملون من أجل السلام. وكان دوى الصوت جميلاً بالنسبة إليه.

وعندما بدأ فى إعداد تقاريره لأول اجتماع له مع حملة الأسهم، وفخورًا بالتقدم الذى سجله، وصلته رسالة من بيلوز من لاروش المهندس المساعد المسئول هناك. فقد ظهر فجأة وزير مالية الباب العالى أثناء الحفر وأمر بإيقاف العمل فورًا. ورفض القنصل الفرنسى أن يحتج. واستمر لاروش نفسه فى العمل قائلاً وهو يقلد بدقة صوت رئيسه " لا أحد يستطيع إيقافى".

وبمجرد وصول الأنباء إلى ديليسبس دعا إلى عقد اجتماع لمديريه، ممتنًا بأنه كان فى باريس فى الوقت الملائم. وعندما أخبرهم بما حدث أضاف قوله:

" إنها إنجلترا مرة أخرى، أشعر يقيناً بذلك. لا تزال تركيا تغنى أغانى بريطانية. وهذا يعنى أن إنجلترا قد خرقت تعهدها بالحياد، وفى ذلك إهانة لفرنسا. وعلى أية حال فإن اتفاقاً يخرق من طرف واحد لم يعد اتفاقاً بعد بالنسبة إلى الطرف الآخر".

وبوقار قامت لجنة تمثل موظفى شركة قناة السويس بزيارة إمبراطور فرنسا ذلك اليوم. وسألت اللجنة الإمبراطور : نظراً للاتفاق المخترق، ألا يمكن لجلالتكم أن تأمروا باستمرار العمل؟ والقنصل الفرنسي الذى رفض حماية الممتلكات الفرنسية، ألا يمكن تعيينه فى منصب آخر؟

وأخيراً قامت إنجلترا وتركيا بإحداث ضجة حول التجنيد للعمل لدرجة قيام سعيد بإيقاف العمل بالتجنيد الإجبارى، وبعد ذلك استمر العمل ببطء أكثر بسبب عدم كفاية العمال. ثم جاءت ، كما لو كانت مرسلة من السماء ذاتها، جالية كبيرة من السجناء الذين هربوا من سجنهم على الشاطىء الإيطالى، وظهروا فى السويس، وعرض عليهم ديليسبس فوراً أن يقدم لهم الغذاء والكساء، وأن يعطيهم أجورهم إذا ما عملوا فى القناة. وهكذا أطعمهم ديليسبس وكساهم وعلمهم ما يتصل بالعمل الذى كانوا يقومون به، وخلق لديهم شعوراً عميقاً بالفخر بأنهم أصبحوا جزءاً من التاريخ.

ولم ينظروا إلى أنهم أعيد تأهيلهم كلية من جانب مستخدمهم، بل نظروا إلى حد ما إلى انجذابهم الكامل نحو طاقتهم التى أعيد اكتشافها للعمل فى الخير، وبذلوا جهداً مضاعفاً كعمال جيدين مثل معظم الرجال. وظل ديليسبس يشعر بالفخر بالتغيير الذى أحدثه فيهم. لقد كان يرعاهم كوالد حيث كانت هناك اعتراضات فى المعسكر لأن السجناء الفارين، حسب الرأى الشائع خطرون.

لقد أخبر ديليسبس الأشخاص المتخوفين قائلاً لهم " الناس يقترفون الجرائم فقط عندما يكونون جائعين أو خائفين. أعطوهم الطعام الجيد والأمان وسوف يصبحون مواطنين جيدين دائماً". وهذا ما حدث بالفعل.

ويحلول شهر فبراير ١٨٦٢ كانت قناة الماء العذب جاهزة. ومع مجيء عيد الميلاد الثاني لديليسبس في شهر نوفمبر كانت مياه البحر المتوسط قد ملأت القناة إلى مسافة بعيدة عند بحيرة التمساح ، وهي البحيرة التي قيل إن اليهود عبروا من عندها البحر الأحمر أثناء هروبهم من مصر مع قائدهم موسى. وكان ذلك حدثًا تاريخيًا ظل موضع التذكر لمدة طويلة.

وتم بناء سرادق كبير عند بحيرة التمساح ، ودعى جميع المشاهير المهتمين بالمشروع إلى الحضور ليروا البحرين يلتقيان. وأعطى ديليسبس بنفسه الإشارة للرجال كي يزيلوا آخر شريط رفيع من الأرض يفصل بين كتلتي المياه العظميين. واندفع البحر المتوسط مزمجرًا في بحيرة التمساح ورفع ديليسبس ذراعيه وقال بصوت عال جلي:

" باسم صاحب الجلالة، محمد سعيد، آمر الآن مياه البحر المتوسط بأن تدخل بحيرة التمساح، بفضل الرب! ".

يا لها من تجربة مثيرة ومرضية للغاية ! وعندما انتهى الأمر انضم فرديناند إلى الوالي عند الرصيف. وقال " لقد أنجزت! يا صديقي ، هل تراها؟ ".

ابتسم سعيد بسرور وقال " رأيت. لقد أنجزت، ولكن كانت هناك أوقات كنت أظن فيها أنها لن توجد مطلقًا".

أخبره فرديناند عندئذ " إنني لم أشك أبدًا" . وكان ذلك صحيحًا. لقد كان يعرف دائمًا أن القناة ستبنى. " ألم أخبرك مرة بعد مرة بعد مرة؟"

وأومأ سعيد بالموافقة وأجاب بابتسامة عريضة " لقد فعلت يا صديقي. لقد فعلت ذلك مرارًا لدرجة أنني كدت أن أتوقف تقريبًا عن تصديقك".

كان ذلك في شهر نوفمبر، والآن وقبل مرور أقل من شهرين، ومع بداية العام الجديد، مات محمد سعيد بالحمى وشعر صديقه العزيز من فرنسا بالحزن بمفرده.

الفصل السادس عشر

الافتتاح الكبير

استغرق البناء الفعلى للقناة عشر سنوات. كانت أولى المجارف لرمال الصحراء أعملت فى موقع القناة يوم ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩، وكان الافتتاح الكبير فى شهر نوفمبر عام ,١٨٦٩

بيد أن تلك السنوات العشر مرت أسرع بكثير من السنوات الخمس قبلها بالنسبة إلى مؤسسى القناة، حيث كان المشروع بأكمله بدا مستحيلاً فى بعض الأوقات بسبب التشويشات السياسية التى جعلت والى مصر يصر على الموافقة التركية لفرمان يمنح الإذن لبناء القناة على أرض مصرية.

وكان من الممكن أن تمنح هذه الموافقة بسرعة لو لم ترفض بريطانيا أن تسمح بها لأسباب أنانية تمامًا. فقد كانت تتخوف من أن تؤدى القناة إلى التنافس على السيادة البحرية التى كانت تمتلكها تمامًا فى ذلك الوقت. وكانت الإمبراطورية العثمانية محكومة بمفوضية دولية من الدول الأوربية. وكانت موافقة الباب العالى لا تعنى فقط موافقة تركيا، بل موافقة أوربا أيضًا، وبموجب هذه الموافقة فقط كان يمكن للعمل أن ينطلق بدون تنازع سياسى. وكان هناك هذا التنازع أيضًا. ولكن يبدو أن القدر كان فى صف ديليسبس، عندما أدت انتفاضة مفاجئة فى الهند إلى إرسال قوات بريطانية بسرعة إلى الشرق الأقصى - عبر برزخ السويس ! وقد أدى ذلك إلى تحطيم المقاومة الضعيفة لإنجلترا.

إن التقدم لا يمكن أن يستبقى إلى الأبد. فقد كان أقصر طريق تسلكه إنجلترا إلى الهند عبر السويس - سواء على الأرض أو على الماء.

إن تلك السنوات الخمس من المعارضة لم تكن مضيعة للوقت كلية. فقد أحرز الكثير في الوقت الضائع. وأول شيء هو أنها حولت دبلوماسيًا فرنسيًا سابقًا مبهمًا إلى واحد من أشهر الرجال في العالم. وهناك شيء آخر وهو أنها نشرت قصة السويس في كل أرجاء العالم، وجعلت بالإمكان إقامة شركة عالمية للمؤسسين، وجلبت حملة أسهم من معظم دول أوربا ولكن على الرغم من كل ذلك، جاءت هناك أوقات كانت فيها خزانة الشركة فارغة، وبدا المستقبل مظلمًا في الحقيقة. وكان تحقيق القناة ممكنًا فحسب بفضل رجل واحد فقط تمتع بتفاؤل لا ينضب وبطاقة لا تكل، أي بفضل فرد واحد ذي إصرار عنيد ظل قابضًا على الغاية النهائية.

وتعتبر خمس سنوات مدة طويلة بالنسبة إلى رجل في الستين من العمر. ولكن في تلك السنوات الخمس - من العمل من أجل الحصول على موافقة الباب العالي، كانت لدى ديليسبس فرصة لتنقيح أفكاره التي كانت مبهمة في البداية.

لقد تعلم الكثير في تلك السنوات. وكان أحد هذه الدروس - وليس أقلها - الدرس الذي أكد أهمية الدعاية. لقد وثق في الصحف التي أكسبته، من خلال عرض قصته فيها، التعاطف الطبيعي للبشر، والذي يستنفر عندما يقف رجل ، شجاع وجسور للغاية، بحزم ورباطة جأش أثناء الهجوم عليه، رافضًا أن يغير اتجاهه أو أن يرضخ لمهاجميه. واثقًا من أنه على صواب.

ربما كانت هناك أوقات شعر فيها ديليسبس بالحنق أو الغضب سواء مع سعيد باشا ، صديقه العزيز، أو مع اللورد ستراتفورد دي رد كليف. وبالنسبة إلى سعيد باشا فإنه كان عنيداً. على الرغم من المناقشات البليغة مع صديقه العزيز من فرنسا، بقي مصراً على الفرمان. حتى انتشر السأم والملل في البلد من العمل بأكمله.

ولكن سعيد باشا أدرك أنه ما لم يرغب العالم كله فى بناء قناة كهذه ، فإن بلده ستصبح حالاً ساحة قتال للدول الأخرى. وهذا ما لم يكن يرغب فى حدوثه. ولن يسمح بذلك مطلقًا فى حياته بأية حال من الأحوال.

لقد أظهرت السنوات الخمس لكل من ديليسبس وسعيد أن المشروع لم يكن بسيطًا كما اعتقدوا عندما بدأوا. وعلى سبيل المثال، فإنه كان على إدارة القناة أن تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ما إذا كانت قناة السويس ستصبح وسيلة للسلام أم وسيلة للحرب. وقد نوقشت هذه المسألة فى اجتماع المهندسين فى باريس، وكان لدى الأمير مترنيخ النمساوى .(٣٤) ، أفكار حول الموضوع سجلها فيما بعد كتابة. وقد اتفق على ضرورة التأكيد على الحياد الأبدى للقناة حتى تكون فى خدمة التجارة العالمية باستمرار. ووافق الأمير على فكرة ديليسبس بأنه إذا كانت القناة مملوكة ومدارة عن طريق رجال من كل الدول، فإنها ستظل محايدة لسبب بسيط وهو أنه لن تتجرأ دولة بشن عدوان ضد القوات المتحالفة لجميع الدول الأخرى. بيد أنه أراد أن يجعل هذا الحياد مؤكدًا.

فكر الأمير مترنيخ فى أن يكون شرط الحياد مضمونًا بشكل ما من أشكال القوة الدولية. وبمعنى آخر فإن القوى الأوربية التى ترعى الإمبراطورية العثمانية، ينبغى عليها أن تخول أية قوة ضرورية يحتاج إليها للحفاظ على الحياد الدائم للقناة. وهذه القوات يفترض أن تكون منفصلة كلية عن شركة قناة السويس، التى ستتولى تنفيذ أعمال قناة السويس وإدارتها وتمويلها.

وكتب الأمير مترنيخ " وبهذه الطريقة فإن المسائل الداخلية لتنفيذ القناة وأدائها تبقى، كما يجب أن تكون، منفصلة عن المسائل الخارجية الخاصة بالحياد"

ومن ثم فإن حياد القناة سيكون مؤكداً ، سواء ستكون الإدارة الفعلية فى المستقبل جيدة أو ضعيفة. ولن تكون هناك إمكانية لبعض المديرين التنفيذيين للقناة

لبيع مزايا لأى دولة بمفردها . ولأن القناة ، فضلاً عن كل ذلك، ستكون مفتوحة أمام كل العالم على قدم المساواة.

لقد أعلن إسماعيل باشا .[٣٥] ، خليفة سعيد باشا، نفسه مساندًا قويًا للقناة مثلما كان سعيد، ولكن كان هناك فرق بينهما . إنه لم يتقاسم الحلم مع ديليسبس على امتداد خمسة عشر عاماً . ولكى يثبت مساندته خطط الخديويى الشاب المسرف لإقامة افتتاح كبير يفوق أى شىء رآه العالم من قبل. يجب أن يكون الافتتاح نوعًا من اللقاءات الحميمة لحكام العالم. سيحضره جميع عظماء العالم وأخياره وأغنيائه بصفة خاصة.

وكان السيد فيردى مشغولاً بعمل أوبرا خصيصًا للمناسبة. سيكون الاحتفال الكبير لبضعة أيام. وسيقوم إسماعيل باشا بتحمل تكاليف كل شىء. ألن تجعل هذه القناة مصر واحدة من القوى العظمى فى العالم؟ .

وأخيرًا انتهى العمل فى القناة. وحدد ١٧ نوفمبر موعدًا للافتتاح الكبير. وقد اختير هذا اليوم لأنه كان أيضًا عيدًا دينيًا للإمبراطورة، ومن المؤكد أن القناة لم تعرف مساندًا أكثر إخلاصًا من صاحبة الجلالة. الإمبراطورة أوجينى.

وفجأة بدا تقريبًا أن الافتتاح ينبغى أن يؤجل. وكان من المتعذر تقريبًا تأجيل هذا اليوم، لأن التأجيل جاء متأخرًا .

قبل يومين من الافتتاح جاء إلى مكتب ديليسبس فى السويس أحد مساعدى المهندسين، وسقط على الكرسى منهكًا. لاحظ ديليسبس وجهه الممتقع، وعرف أن هناك مشكلة. وفى ذلك الوقت كان قادرًا على أن يدرك المشكلة بسرعة. فقد رأى من المشكلات ما فيه الكفاية.

سأله ديليسبس "ما الذى يزعجك؟ "

أجاب المهندس : الكثير. مجموعة صخرية مدببة فى الطرف الجنوبى من سيرابيوم. ستشطر أول ناقلة تلمسها إلى شطرين".

قال له ديليسبس : تخلص منها إذن. كم تأخذ من الوقت؟ ".

قام المهندس ، الذى كان على وشك الإخبار، برفع كتفيه إلى أعلى كرمز على اليأس والحيرة، وقال " يجب أن نفجرها أولاً، ثم نحركها ونخرجها. ولا يمكن أن ننتهى من ذلك قبل اليوم السادس عشر.

قال ديليسبس " لكن يجب أن نكون قد أنجزنا هذا العمل حينذاك. فالافتتاح الكبير لا يمكن تأجيله. لا نستطيع أن نجعل العالم ينتظر ونحن نقوم بتطهير سيرابيوم".

إن سحر شخصية ديليسبس فى تلك اللحظة القصيرة جلبت ابتسامة إلى وجه الرجل وخففت من شعوره بالإنهاك، حيث قال " لا ، هذا صحيح تمامًا -- لا يمكن أن يجعلوا العالم منتظراً. سوف نفجر الليلة ، ونبدأ العمل فى الصباح. ربما يمكننا أن نكون جاهزين على الرغم من كل شيء".

قال ديليسبس " ربما ؟ إننى أريد كلمة منك يا سيدى، بأنك ستكون مستعداً".

وأعطاه المهندس كلمة، وحافظ عليها .

وبدأ الزوار المهمون فى الوصول يوم السادس عشر. وتم تطهير القناة عند سيرابيوم بمعجزة. حيث تم ذلك بأسرع حتى مما كان يأمل المهندس ولكن لو كان الزائرون قد وصلوا قبل ساعة، لكانوا رأوا العمال وهم يقومون بالتطهير.

وكان قد أعيد تسمية بيلوز باسم بورسعيد تكريمًا للوالى الذى لولاه لما كانت هناك قناة. وكانت السويس، على البحر الأحمر، قرية يقطنها حفنة من الناس تقريباً، محاطة كلية بالصحراء ، وأصبحت الآن مزدهرة وتحولت إلى مدينة متنامية.

والإسماعيلية على بحيرة التمساح، التى زعم فى التراث أنها البقعة التى عبر منها موسى البحر الأحمر، أصبحت هى الأخرى مدينة الآن. وكل مدن القناة الثلاث أخذت زخرفها وازينت فى أبهى صورة شرقية رائعة. وأنفق إسماعيل باشا بإسراف، ولكن النتائج كانت مذهلة. وكانت الإسماعيلية والسويس متألقتين بمئات الأعلام والرايات المتوهجة. ولكن بورسعيد كانت أبهجها جميعًا.

كانت أرصفتها مكتظة باليخوت والمراكب البخارية، مع السفن الشراعية الضخمة وعدد لا يحصى من الزوارق الصغيرة، مع الطوافات والسفن الحربية. وكل الصوارى كانت مشرعة، استعداداً للاحتفال الكبير.

كان المطر ينهمر بينما العمال يفجرون ويطهرون القناة عند سيرابيوم، ولكن فى يومى السادس عشر والسابع عشر كانت الشمس فى أوج إشراقها. وهذا ما أسعد ديليسبس الذى كان يفسر ذلك على أنها علامة أخرى من علامات النعم السماوية. وكان هناك الكثير من هذه النعم. ولكن بدا له حينذاك منذ اللحظات الأولى أن أجاثى كانت شريكته فى المشروع بأكمله، وأن نعم السماء العديدة التى وهبت للسويس كانت هدايا من أجاثى. والآن كان العمل قد انتهى. لقد صان وعده لأجاثى. لقد بنى القناة. على الرغم من ذلك ، فإن افتتاح القناة قد يمكنه أخيراً من تحرير نفسه من الشراكة مع الموتى. وبإمكانه الآن أن يفكر فى نفسه وفى مستقبله. وكانت هناك امرأة شابه وجميلة قد انجذب نحوها.

وعلى رصيف أوجينى فى بورسعيد أعدت منصة لكى تكون منبراً للمتحدث. وهناك سيجلس العظماء، وهناك سيلقى المتحدثون كلمات تاريخية. ونادراً ما تجمع مثل هذا العدد الكبير من العظماء فى مكان واحد.

وكان من بين الحضور الستة آلاف الإمبراطورة أوجينى من فرنسا، والإمبراطورة إليزابيث من النمسا، وإمبراطور النمسا، وولى عهد بروسيا، وأمير هيس

الأمير ويليام، وولى عهد هولندا، وعديد من الشخصيات الملكية المماثلة الأخرى. كما كان هناك شارل وفيكتور ديليسبس ، إبنا فرديناند ، وأخوه ثيودور، والمديرون الفرنسيون لشركة قناة السويس، كانوا جميعًا حاضرين.

ورفرفت فى هواء الصحراء الأعلام التى تحمل هلال ونجمة الإسلام والصليب المسيحى.

هل كانت مصر فى يوم من الأيام مكانًا لالتقاء الشرق والغرب منذ بدء التاريخ؟ هكذا ستكون باستمرار. وهنا فى السويس ستتصافح أيدى الحضارات فى التجارة المشتركة. أى ضمان أفضل لسلام العالم يمكن أن يوجد؟

وانطلقت أصوات المدافع من العديد من السفن الحربية للتحية عندما اقترب اليخت النسر L'Aigle ، وكان عليه الإمبراطورة أوجينى وبطانتها والمديرون الفرنسيون لقناة السويس.

وفى يوم السابع عشر استغرقت خطب التقريظ طوال الصباح. وتمت مباركة القناة الجديدة من جانب قسيس مسيحى وشيخ مسلم. وكان لدى المتحدثين من الشرق والغرب الكثير مما قالوه عن محمد سعيد الذى منح بشجاعة الامتياز لهذه اللحظة التاريخية. وأطلقوا على فرديناند ديليسبس اسم كريستوفر كولومبس .[٣٦] ،الثانى، الذى كان يبحث عن طريق جديد إلى الهند، وأوحوا فى كلماتهم بأن شبيهة إيزابيلا ملكة إسبانيا .[٣٧] ، هى أوجينى إمبراطورة فرنسا التى كانت الراعية لهذا المكتشف الثانى. وكانت الأبواق تصدح قبل كل خطبة وبعدها، وكانت الطبول تقرع وتزمجر فى الأفق البعيد.

وفى المساء، كانت موانىء مدن القناة الثلاثة مضاءة بمصابيح كهربائية متلألئة. وأسهم نارية كانت تصب نوافير من المطر الملون فى المياه فى بورسعيد، تلفت الأنظار بأضوائها الخافتة إلى اليخوت الملكية الراسية هناك. وكانت الحفلات الراقصة تملأ بورسعيد والإسماعيلية والسويس.

وفي بورسعيد كانت منصة أوجيني تعد لأوبرا عايدة التى لم تنته بعد، والتى ألفها وقادها السنيور العظيم فيردى لأجل هذه المناسبة الفريدة للغاية، على الرغم من أن المؤلف أصر على أن الأوبرا لم تكن قد انتهت تمامًا بعد ، ولم تكن جاهزة للأداء العلنى على الجمهور، فقد قدمت هنا لأعظم المستمعين تميزًا، وذلك بأمر ملكى من إمبراطورة فرنسا وخديوى مصر. وقد وزع الخديويى تذاكر مجانية بيد مبذرة على آلاف الضيوف.

وطوال الاحتفال لم يكن ديليسبس، بطل الاحتفال بأكمله، مصطحبًا فقط ابنيه وزوجتيهما وجمعًا غفيرًا من أقاربه والمتصلين به الذين كانوا قد آمنوا به وصدقوه وائتمنوه على أموالهم فى السويس ، بل كان قد اصطحب معه أيضًا امرأة شابة سمراء ذات شعر أسود ، وأصغر من أولاده. كان هى الآنسة لويز هيلين براجارد. كانت فى الحادية والعشرين من عمرها، وهى ابنة مدير تنفيذى من جاميكا . كان دمها خليطًا فرنسيًا إسبانيًا جامايكيًا. إن ديليسبس نفسه كان ذا أصول فرنسية إسبانية. كانت جميلة وجذابة، وكانت هائمة فى حب هذا الرجل الذى يتسم بالشباب دائمًا ذى الأربعة وستين عامًا، بطل السويس.

كان ديليسبس ناجحًا دائمًا مع النساء، ولكنه منذ وفاة أجاثى لم ينظر إلى أىّ امرأة أخرى نظرة رومانسية. فى البداية كان حزينًا للغاية ، ثم أصبح تعيسًا للغاية، ثم أصبح فى المرحلة الأخيرة مشغولاً للغاية، فلم يفكر فى إقامة علاقة غرامية جديدة. ولكنه الآن قد أصبح لديه الوقت للبهجة العائلية. وحتى ربما يكون له أولاد. ولم يسبق أبدًا أن قابل امرأة تجعله يشعر بالشباب والقوة والبهجة مثلما شعر مع هذه البنت الشابة التى رقصت وضحكت معه، والتى جذبته عينيها السوداوين. ربما لو أنها استوعبته قد يتزوجها.

وبينما كانوا جالسين لمشاهدة الأوبرا غير المكتملة للسنيور فيروى مال مرسال على كرسى ديليسبس وهمس فى أذنه.

" سيدى، هل أستطيع التحدث إليك على انفراد؟ إنها .... إنها القناة يا سيد. لقد حدث أمر ما عند الإسماعيلية".

وقدم ديليسبس اعتذاره إلى الآنسة براجارد. وتركها تحت رعاية فريق الإمبراطورة، ثم تبع المرسال وسمع روايته.

سأل المرسال " هل ذهب الوالى إلى محل إقامته ؟ " . حيث كان يعلم أن من عادة إسماعيل باشا أن يغادر الأوبرا قبل وقت قليل من نهايتها، وكان على الآخرين أن يتريثوا بسبب البروتوكول التى يقتضى ألا يغادر أحد حتى يكون الوالى قد غادر.

كانت قد مرت ساعات بعد منتصف الليل. ودمدم إسماعيل باشا عندما سمح لديليسبس أخيراً بالدخول عليه فى غرفة نومه.

قال إسماعيل باشا متأوهاً " لا إزعاج أكثر ! ليس فى هذا الوقت المتأخر!".

وابتسم ديليسبس " ليس الوقت متأخراً جداً للإزعاج يا صاحب الجلالة. إحدى شاحناتك البحرية يا صاحب الجلالة أهملت ملاحظة عوامات الإرشاد حسب التعليمات ونتيجة لذلك فإن الباخرة تغرق وتتأرجح فى القناة، وقد أعاقت المرور تماماً، سأذهب على الفور إلى الإسماعيلية، ولكن قبل أن أذهب أود الحصول على الإذن يا مولاى ...... ".

لم يكن هناك حاجة إلى إنهاء كلامه. فقد قال إسماعيل باشا وهو يتثاءب. " إذا لم تكن هناك طريقة أخرى لتسليك القناة - نعم ، حينئذ فقط هل يمكنك أن تنسف الباخرة. لا يمكن أن تكون القناة مغلقة غداً. والآن هل هذا هو كل ما تطلبه منى؟ أيمكننى أن أعود إلى النوم؟ ".

تمتم ديليسبس قائلاً " شكراً يا مولاى. إننى أحسد صاحب الجلالة على نومه بالليل. ليتنى أستمتع بقليل من النوم".

الفصل السابع عشر

تصاريف القدر

ركب فرديناند متجهًا إلى الإسماعيلية بأقصى سرعة يمكن لحصانه العربى أن يجرى بها. وكانت الشاحنة البحرية لا تزال هناك، ولكن ما أراحه هو أنه رأى الرجال يقومون بالعمل فعلاً من أجل تحريرها. وكان رمل الصحراء قد غطى حمولتها وكان منهمكًا فى العمل بشدة فريق من الملاحين المصريين.

وراقب ديليسبس التقدم فى العمل وتنهد لانفراج الكرب مع بزوغ الشمس عندما قعقعت الشاحنة وانزلقت بعيداً عن الحاجز الرملى. وكل ما تبقى الآن هو إعادة تحميل الشحنة. ويجب على الملاحين أن ينضموا من جديد مع السفن الأخرى عند السويس، وذلك لأنها يجب أن تبدأ فى المرور عبر القناة عند الساعة الثامنة.

قال ديليسبس للقائد " سأذهب معك على سفينتك. سأكون قادراً على النوم بدون إزعاج".

وفى الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم، الثامن عشر من نوفمبر عام ١٨٦٩، قاد اليخت الأميرى الفرنسى "ليجل" أسطولاً صغيرًا من سفن الشحن فى القناة من بورسعيد. وفى اللحظة ذاتها كان أسطول من السفن الحربية المصرية -وعلى إحداها بطبيعة الحال ديليسبس الذى كان نائمًا فى سلام - يدخل القناة عند السويس. وكان على الجميع أن يلتقوا فى الإسماعيلية تلك الليلة.

افتقدت الإمبراطورة أوجينى ابن عمها المفضل. وسألت بمجرد أن غادرت المقصورة الأميرية " أين الكونت ديليسبس؟ هل رأيتم ابن العم فرديناند؟ ولكن لم يكن أحد قد رآه.

وأصرت قائلة " كان ينبغى أن يكون على هذه السفينة. ماذا تظن فيما يكون قد حدث؟

كانت الآنسة براجارد منزعجة. أيمكن أن يكون قد حدث أمر ما لبطلها أثناء العمل فى الحاجز الرملى؟ أو هل يمكن أن يكون قد وقع من فوق حصانه فى طريق عودته إلى بورسعيد؟

وفى الساعة الثامنة مساء كان الأسطول الفرنسى الصغير يطلق أبخرته داخلاً الإسماعيلية فى الوقت ذاته الذى وصلت فيه السفن الحربية المصرية من الاتجاه العكسى.

كانت هناك فى تلك الليلة حفلة راقصة أخرى فى الإسماعيلية، واحمرت وجنتا ديليسبس وبرقت عيناه عندما ظهرت أمامه بحيويتها وشبابها لويز هيلين براجارد. لقد كان قد استمتع بأكثر من اثنتى عشرة ساعة من النوم. لقد كان فى أشد الحاجة إلى هذا النوم.

وفى اليوم التالى تابعت السفن التجارية الثمانون طريقها عبر القناة وكانت السفن الفرنسية فى السويس تلك الليلة. يالها من تغييرات حدثت فى المدينة منذ أن بدأ العمل فى القناة! لم يكن هناك شىء حينذاك سوى بضعة أكواخ تعيسة، لأناس يعيشون – بلا حياة – فى أماكن لا توجد فيها مياه للشرب.

أما الآن فقد جلبت لهم القناة الماء الصالح والتجارة. لقد جلبت الحياة إلى السويس.

وقد أمتعت الرحلة عبر القناة الإمبراطورة أوجيني، وهى امرأة فاتنة مليئة بكل أشكال الحماسة. صاحت قائلة " ظننت أنني سأموت من القلق عندما كنا نسير في قناتنا. كنت خائفة أن يحدث خطأ ما، وأن يضيع هباء كل ما قمنا به من عمل شاق!".

ضحك أصدقاؤها ، وأغاظوها بأنها تتكلم كما لو أنها هى التى بنت القناة بيديها. ولكن ديليسبس لم يضحك، وأخبرهم بأن " صاحبة الجلالة يمكنها أن تقول بحق "قناتنا". إن اهتمامها كان سخيًا دائمًا لدرجة أنه يمكنها أن تدعى أن نجاح اليوم مدين لها بالفضل تمامًا. وكان نجاحًا بالفعل. ألم يكن كذلك؟".

لقد كان هذا اليوم هو اليوم الذى كان ينتظره ليرى أنه جاء بالفعل بعد وقت طويل، وكان من الصعب تصديق ذلك. كان فى حاجة إلى تأكيد الأصدقاء بأن ذلك حدث فعلاً ولم يكن مجرد جزء آخر من حلمه القديم.

ابتسمت الإمبراطورة وقالت " كان رائعًا ! كان رائعًا!".

وانحنى الكونت فوق أنامل سيادتها وهو يطبق عليها بشفتيه.

وقال " يا صاحبة الجلالة كان المتحدث على صواب عندما قال بأنك كنت الملكة إيزابيلا للسويس".

ضحكت هيلين براجارد وقالت " وأنت يا سيدى، كما قال المتحدث، كنت كولومبو. فأنت الذى اكتشف السويس - وطريقًا جديدًا إلى الهند".

وفى ذلك المساء طلب ديليسبس من السيد براجارد يد ابنته وقبل طلبه. ولكن ديليسبس عندما أخبر ابنه شارل بأنه نوى الزواج، ارتعد شارل وقال "ولكن لا يمكن أن تكون جادًا ! إنها صغيرة - كما أنها مجهولة من العالم.

أنت والدى يا سيدى - إننى أكبر منها بعشر سنوات. أنت والدى وجد أولادى. من المؤكد أنك لست جادًا".

أجاب الوالد " لم أكن أبدًا أكثر جدية من الآن يا بنى".

وتزوجا خلال أسبوع، فى اليوم التالى لقيام إمبراطورة فرنسا بوضع ميدالية الشرف الفرنسية French Legion of Honer على صدر فرديناند ديليسبس باسم زوجها نابليون الثالث وباسم فرنسا، وتم ذلك فى احتفال مهيب على اليخت الأميرى الفرنسي. وشرب شارل نخب عروس والده على الرغم من أنه لم يزل غير موافق.

وفى اليوم التالى، وبينما كانت العروس والعريس يركبان جواديهما على ضفة القناة سمعا صوت نفير عاليا لإحدى سفن الشحن.

أوقف ديليسبس جواده وقال لعروسه " انتظرى، إنه أول زبون لنا".

وراقبه حتى دخلت السفينة الإنجليزية القناة، كانت سفينة شحن فى طريق عودتها من الهند إلى الوطن.

واستغرق ديليسبس فى الضحك، وصاح " ألا تعرفين هذه السفينة؟ فبعد كل المضايقات التى سببتها لنا بريطانيا العظمى، هذه هى أول من يستخدم قناتنا".

وبعد سنوات عديدة، كان شارل مضطرًا لتغيير رأيه بصدد الزواج الثانى لأبيه. قد تكون الزوجة فى ربيع العمر June، والزوج فى خريف العمر December ، على الرغم من ذلك عاشا معًا بسعادة وإخلاص لمدة ربع قرن.

وأعطت الزوجة الشابة زوجها على مر السنين إثنى عشر طفلاً، ستة أولاد، وست بنات. وعندما انتهت بالفشل المشين الشركة الفرنسية لقناة بنما، والتى وجه اللوم فى ذلك إلى زوجها الذى كان عمره فوق الثمانين عامًا، فإن إخلاص الزوجة الفائق والمتين، وثقتها التى لا تشوبها شائبة، استمرا حتى يوم وفاة الزوج، مما يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الزيجة كانت ناجحة.

وإذا كان ديليسبس يحلم فى التقاعد وهو طى النسيان فى تشيزناى، فإنه الآن وبعد أن استكملت القناة سرعان ما اكتشف أن الغموض أو النسيان أمر لم يعد ممكنًا. لقد أصبح رجلاً عظيمًا الآن. العالم بأكمله يرغب فى تكريمه.

كان الناس ينادونه "الفرنسى العظيم". وكانت جماعات من الناس تتبعه وهو يمشى فى الشوارع، أو عندما يركب حصانه عبر الغابات والغياض، .Bios ، ولأنه إنسان فقد أحب ذلك. ولكن معظم محبته لذلك سببه أنه كان يرى أن مثل هذه الاهتمامات تسر زوجته الشابة. كانت عيناها تشع بالبهجة لكل إشارة إلى أن زوجها واحد من أعظم المواطنين الفرنسيين المحبوبين.

حتى إنجلترا كانت تواقة لتكريم ديليسبس، لا سيما أن القناة كانت قد انتهت الآن وأصبحت رهن الاستخدام. وقد دعته الحكومة البريطانية لزيارة إنجلترا فى الصيف التالى للافتتاح الكبير. وقد قبل الدعوة فى يونيو , ١٨٧٠

ومنذ اليوم الذى وصل فيه وزوجته إلى ليفربول، وحتى اليوم الذى غادرا فيه عائدين إلى باريس، كانت رحلتهما جولة لتمجيد الانتصار، حيث استقبل استقبال الفاتحين. ففى ليفربول أعد لهما دوق سازرلاند وليمة فاخرة فى مبنى ستافورد، وشرب اللورد مايور نخب " الرجل الذى أحضر فجأة مدراس إلى ليفربول خلال عشرين يومًا".

إن صحيفة التايمز اللندنية، وهى الصحيفة التى طالما حاربته بشدة، تحييه الآن فى افتتاحيتها:

قالت التايمز " وصل السيد ديليسبس إلى دولة لم تفعل شيئًا لمساعدته فى بناء القناة، ولكن منذ افتتاحها كانت السفن البريطانية التى تمر فيها أكثر من سفن كل الدول الأخرى مجتمعة. إنها الدولة التى ستزوده بكل الأرباح تقريبًا التى سيحصل عليها حملة الأسهم لديه. ليكن ذلك هو التعويض الذى نقدمه له مقابل كل المساوىء التى حاولنا أن نبتليه بها فى الماضى" .

وفى لندن كان هناك حفل استقبال ضخم على شرفه فى قصر الكريستال الجديد الذى اكتمل بناؤه للتو. ثلاثون ألف شخص قيل إنهم كانوا يتدافعون فى طريقهم فى جموع محتشدة لمجرد أن يلقى كل منهم نظرة على الرجل الفرنسى العظيم.

وكـان العـديد منهم ملتـصـقين به بشـدة، وفى صـخب عنيف، يصـافـحـون يده، ويستمتعون بابتسامته المتألقة.

وخطب اللورد تشمبرلين خطبة طويلة ومبهجة، وقدم له مفاتيح لندن، وهو شرف لا يقل عظمة عن نجمة الشرف الفرنسية، حيث وضـع الميدالية بفخر على صدره.

وقد رد على اللورد تشمبرلين باسم السويس، آملاً بصوت هادئ، وبلا شك، أن يشـجع هذا الاحـتـفال العـام بريطانيـا العظمى على شـراء حصـة من الأسـهم قـدرها خمسـة وثمـانون ألف سـهم التى كان الوالى قد أصـر على ضـرورة تجنيبها لإنجلترا والولايات المتحدة والدول الأخرى الأكثر تخوفًا من المساهمة، والتى فضلت أن تنتظر إلى أن يكون النجاح مضمونًا قبل أن تشترى حصة فى القناة.

واختـصـرت زيارتهما إلى إنجلترا مع تزايد الشـائعات حـول حرب فى الوطن. ولم يكادا يستقران مرة أخرى فى تشيزناى حتى أعلنت فرنسا مكرهة الحرب على ألمانيا، وقـاد نابليـون الثـالث بنفسـه فرقـة من قـواته الخـاصـة فـى "سـيدان" .[٣٨] ، ولكن اسم نابليون لـم يعد مـهيبًا، لأن الفرنسـيين هزمـوا فـى سـيدان، وأخذ الإمـبراطور أسـير حرب. وفرض الألمان حصـارًا على باريس. وسـاعد ديليسبس نفسه فى حراسة قصر تويليرى Tuileries لحماية الإمبراطورة أوجينى.

وسـاعـد فى التـخطيط لهروبهـا النهـائى مع ابنهـا ذى الأربعة عـشر ربيـعًا، ولى العـهد الإمبراطورى ، عبر القناة الفاصلة بين فرنسا وإنجلترا، ليكونا تحت الحـماية الحانية للملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا.

وقد وصلت الإمبراطورة بالكاد إلى لندن قبل أن يصبح التويلرى قطعة مشتعلة تضـئ سـمـاء الليل الحـالك، حيث أضـرمت النار فـيه بأيدى ألمانيـة. وفى الوقت الذى اشـتـعلت فـيـه الحـرب كانت فرنسـا قـد فقـدت الإلزاس واللورين، وفقـدت إمبراطورها والإمـبراطورية ذاتها، وللمرة الثالثة والأخيرة، أصـبـحت فرنسا جمـهورية مرة أخرى. وهذه المرة أصبحت جمهورية إلى الأبد.

كانت الحياة الشخصية لديليسبس أسعد مما كانت عليه لسنوات عديدة عظيمة. ففى العمر الذى ينشغل فيه معظم الرجال بالاستمتاع بهدوء بأحفادهم، كان ديليسبس يلعب لعبة العروس والعريس حيث أصبح حينئذ والداً جديداً.

لقد كان أبًا مدهشًا، صبورًا ومخلصًا، ومتفهمًا، علاوة على أنه كان حيويًا ونشيطًا ومسليًا على الدوام. وكان ذلك السحر الذى جعل العالم بأكمله يحبه، هو ذاته السحر الذى جعله محببًا لدى أطفاله. لقد كان بطلهم ومحور حياتهم اليافعة.

ربما كانت متعته الكبرى هى تعليم عائلته الجديدة ركوب الخيل، وقبل أن يتمكنوا من المشى تقريبًا كان يضعهم فوق ظهر حصان، حيث يجلس أحدهم أمامه، ويمسكه طرف سير اللجام. وعندما أصبحوا مستعدين لدخول المدرسة، كان معظمهم قد صاروا وثبة محنكين. وشعر الباريسيون أن القتال قد انتهى، وأن بداية جيدة لممارستهم الصباحية قد حلت عندما فاجأهم الفرنسى العظيم راكبًا حصانه فى الغياض مع بناته الصغار بشعورهن الطويلة التى تتطاير فى الهواء، يضحكن، وتنادى إحداهن على الأخرى، ويتسابقن على امتداد دروب الخيالة.

أصبح شارل ديليسبس الآن وكيل والده فى شركة قناة السويس. وحتى بعد اكتمال القناة كانت لا تزال هناك فواتير كثيرة واجبة السداد، لأن مبانى القناة كانت قد تكلفت أكثر من التقديرات الأصلية. وكانت الحكومة الفرنسية قد وافقت على إصدار سندات، ولكن السندات بيعت ببطء، لأن المال كان شحيحًا أثناء الحرب. ولم يكن الناس مهتمين بالاستثمارات الخارجية.

ومرة أو مرتان بدت الأمور مظلمة إلى حد أن ديليسبس نفسه تحدث حول تسييل أصول الشركة. ثم جاء أحد رجال البنوك الفرنسيين صباح يوم ما إلى مكتب شركة قناة السويس ، رجل اسمه لابودى، وطلب مقابلة شارل ديليسبس.

قال الرجل لشارل "سمعت أن إصداركم للسندات لا يسير بشكل جيد" . ولم يكن أمام شارل سوى أن يوافق على أن هذه هى الحقيقة. وقال لابودى " أتيت لأعطيك المال. كم من المال تحتاج للقناة؟ "

لم يستطع شارل أن يصدق أذنيه . إن وصول السيد لابودى فى هذه اللحظة بذاتها جعله قادراً تقريبًا على موافقة أبيه فى اعتقاده أن الطريقة التى كان الله يتدخل بها غالبًا فى بناء قناة السويس كانت دليلاً على إرادة الله بإكمال بناء القناة. والآن هناك دليل آخر على ذلك . هكذا فكر شارل .

أجاب شارل بمجرد أن استطاع الكلام مرة أخرى " سبعة ملايين فرنك قد تساعدنا" .

قال الرجل " حسنًا، دعنى أشترى سنداتك. لقد كسبت أموالاً فى هذه الحرب، وأرغب فى إنفاقها فى سبيل السلام" .

وأدى هذا إلى إنهاء الصعوبات المالية لقناة السويس ، وكان يحق للسيد لابودى أن يجنى ثمار كرمه وثقته أضعاف أمواله، فقد تحققت أرباح وصلت إلى ٣٠ ٪ وزعت أخيراً على جميع المستثمرين فى السويس، وارتفعت قيمة أسهم القناة إلى أرقام فلكية. وبدأ الناس ينظرون إلى القامة القصيرة الممتلئة لفرديناند ديليسبس على أنه تنسجم مع شخصية بابا نويل الفرنسى French Santa Claus، وسمع الفرنسى العظيم بنفسه أخيراً أنه لقب أيضًا ": المواطن العالمى " . ، وقد سره اللقب.

وكانت إنجلترا فى الواقع تستخدم القناة أكثر من أى دولة أخرى فى العالم. لقد قصرت الرحلة إلى الهند أيامًا كثيرة ، وقد أدت إلى زيادة التجارة الخارجية لبريطانيا العظمى بدرجة معتبرة. وكانت أسهم الشركة جيدة للغاية فى البورصة، وقررت بريطانيا أن امتلاك حصة كبيرة فى أسهم قناة السويس سيكون امتلاكًا قيمًا . وجاء القرار وسنحت الفرصة فى اللحظة ذاتها.

فإسماعيل باشا، الخديوى المبذر فى مصر والذى أنفق المال بغير اكتراث فى حفل التدشين فى بورسعيد، صار غير مكترث أكثر فأكثر بأمواله، ويبحث الآن لزيادة ثروته لكى يسدد ديونه .

وقد عرف بأن الوسيلة العملية الوحيدة لذلك هى بيع حصته من الأسهم والسندات فى السويس. وإحدى الشركات الفرنسية، التى كان لها حق الاختيار فى طلب بيع أسهم السويس، تخلت عن هذا الحق لأن ديليسبس كان قد أقرض أموالاً بالفعل إلى إسماعيل باشا ، باسم الشركة، بضمان كوبونات على السندات. وكان معنى هذا أن السندات لن تدر عائداً على المشترى لمدى عشرين سنة تقريباً.

وفجأة، وبدون أى تحذير بأن الصفقة الدولية كانت موضع التفحص، انتشر الكلام فى أرجاء العالم يوماً ما بأن بنيامين دزرائيلى.[٣٩] ، رئيس وزراء الملكة فيكتوريا، قد اشترى ممتلكات إسماعيل باشا فى قناة السويس، بتحرك سرى ذكى وبدون دعوة برلمانه للاجتماع للقيام بما يلزم فى شأن البيع، وكان حجم هذه الممتلكات يصل إلى ثلث الأسهم الكلية المصدرة تقريباً. واغتاظ كثير من الفرنسيين من صنيع دزرائيلى، ولكنهم أعجبوا به بحسرة على دهائه كرجل دولة وعلى أية حال كان ديليسبس مسروراً ، الآن يمكن للقناة أن تكون آمنة ومحايدة ، فالقبضة القوية لإنجلترا ستكون جيدة بالنسبة إلى إدارتها.

وستوازن كل من فرنسا وإنجلترا إحداهما الأخرى، وتكون النتيجة قوة أعظم وإدارة أكثر حكمة. وهذه الرعاية المشتركة قد تفعل الكثير لجعل الدولتين مرتبطتين بصداقة أبدية ، واتفاق أنجلو – فرنسى دائم وحقيقى. وبسرعة قام فرديناند ديليسبس بإعداد قائمة بالرجال الإنجليز الذين يمكن إقناعهم بالعمل كمديرين فى الشركة. وسيقدم هذه القائمة فى الاجتماع التالى لمجلس إدارته.

الفصل الثامن عشر

رهين المدفنين

إن أولئك الذين كانت لديهم الشجاعة الكافية لوضع ثقتهم فى الرجل الفرنسى العظيم وفكرته الرائعة سرعان ما وجدوا أنفسهم يكافأون بسعة. لقد جاءت القناة إلى الوجود فى الفترة التى كانت تحل فيها السفن البخارية محل السفن الشراعية، ومع البخار نمت التجارة الخارجية بسرعة وبحجم هائل . والسرعة وتقصير المسافة جعلتا جميع دول العالم على اتصال إحداها مع الأخرى. كما جلبتا أيضًا التفاهم والخلاف بين الدول فى آن واحد.

وثبت أن تخوف إنجلترا من تهديد سيادتها على البحار لم يكن له مبرر. فقد ظلت انجلترا أكثر المستخدمين لقناة السويس والمترددين عليها . وكانت سفنها تروح إلى الهند وتغدو فى نصف الوقت الذى كانت تستغرقه يومًا من خلال مضيق ماجلان.[٤٠] .

كان فرديناند ديليسبس قد وضع كل سنت لديه تقريبًا فى قناة السويس وأصبح الآن يحقق ربحًا . ومثلما يحدث من كل الناس الذين يجدون أنفسهم يمتلكون أموالاً أكثر مما يحتاجون إليه من أجل عائلاتهم، فإنه كان يفتش عن استثمارات أخرى واعدة بالحظ السعيد . ولم يجدها أبدًا . ولكنه أثناء البحث ساعد فى إنشاء سكة حديد شرق آسيا، وفى إقامة بحر داخلى فى الصحراء الكبرى، وأخيرًا عندما بلغ الرابعة والسبعين من العمر، رأس شركة للجغرافيين الفرنسيين أسست من أجل بناء قناة

أمريكية فى بنما لتربط بين المحيطين الأطلسى والهادئ.[٤١] ، وأثبت هذا المشروع أنه كان بالنسبة إليه بمثابة ووترلو .[٤٢] .

إن المسافة والمناخ والتورط فى التآمر السياسى لم تتمخض عن فشل المشروع فحسب، بل جلبت أيضًا واحدة من أعظم الكوارث الاقتصادية التى عرفتها فرنسا على الإطلاق، وفى اليوم الذى اضطر فيه مكتب الشركة إلى إغلاق أبوابه فى النهاية، بعد أن كتب ديليسبس نفسه، بغير دقة، برقية بإيقاف العمل بالكامل فى قناة بنما، عانى من سكتة دماغية جعلته عاجزًا حتى وفاته.

إن ابنه الأكبر شارل، الذى كان معه فى السويس، لم يكن موافقًا على تعهده بمشروع بنما. فقد تذكر بجلاء شديد المحاذير والمخاوف التى مروا بها فى السويس.

سأل شارل والده " ما الذى تريد أن تجده فى بنما؟ المال؟ إنك لن تعانى من أجل المال فى بنما مثلما عانيت فى السويس. أهى الشهرة؟ إن لديك ما يكفى من الشهرة. لماذا لا تترك ذلك لشخص آخر؟ وبالنسبة إلينا الذين عملوا إلى جانبك، ألا ينبغى لنا أن نستريح؟ ... لقد نجحت فى السويس بمعجزة . ولتكن راضيًا بإنجازك معجزة واحدة فى حياتك، ولا تتمنى أخرى" .

ولم تتحقق أمنياته بشأن تلك المعجزة الثانية. ولكن عندما حدث الانهيار، كان إخلاص ابنه شارل أفضل من أى معجزة للنجاح المالى. وعندما انتشرت الدسائس السياسية ، كان كل من شارل وأبيه متهمين برشوة موظفى الحكومة ولكن شارل حمل على كتفيه كل اللوم، حتى أنه تحمل تنفيذ الحكم الذى كان ينبغى أن يشاركه فيه والده، كما أن صحة فرديناند وتعلق الجمهور به لم يشفعا فى إنقاذه. ولكن لم ينفذ الحكم على فرديناند ديليسبس بطبيعة الحال. كان الحكم ظالمًا وبدون مبرر كاف.

وكانت الحكومة الفرنسية قد وعدت شركته بقرض، ولكن رفضته بدون إنذار. ولم يكن هناك ما يكفى من المال لكى يسدد الفواتير الثقيلة، وشركة بلا مال، وبلا سعيد باشا الكريم لإنقاذها، لا يمكن لها أن تستمر.

وحتى على الرغم من العقبة التى واجهت فرديناند ديليسبس، فإن اسمه ظل لامعًا لا تشوبه شائبة، بينما هو جالس شهرًا بعد شهر على كرسى بعجلات، يحملق فى الفضاء ، ينظر إلى مجلة مقلوبة رأسًا على عقب. كان لا يزال الفرنسى العظيم.

وفى عام ١٨٨٥ ، وعندما بدأ العمل فعلاً فى مشروع قناة بنما، كان ديليسبس قد عين ، وهو فى أوج عظمته، عضوًا فى الأكاديمية الفرنسية، حيث قال السيد رينان، فى كلمة الترحيب " الناس يحبونك ويحبون أن يروك، وكانوا يهتفون لك قبل أن تفتح فمك بالكلام. منافسوك يقولون إن ذلك من ذكائك ، ونحن نسميه سحرك".

إن أسرة ديليسبس ذاتها شعرت بذات السحر. لويز هيلين كانت ترقبه وهو يموت ، وكانت مدركة لذلك، وأطفاله يحومون حوله، متلهفين لخدمته، أن يحضروا له العلاج، أن يحركوا كرسيه، ولكنهم أدركوا نهايته أيضًا.

قال السيد رينان " الإنسان يصنع الأفعال العظيمة بالفطرة، مجرد أن يبدأ الطائر فى الطيران بجناحية ، يكون موجهًا بخريطة غامضة يحملها داخل عقله الصغير. إنك لم تخف عن نفسك حقيقة أن شق البرزخ سيخدم بشكل تناوبى مصالح متنوعة للغاية، فالقول المأثور " لقد جئت لا لجلب السلام، بل الحرب" ، لابد أن يكون قد خطر على بالك وتردد فى ذاكرتك مرارًا. البرزخ شق مضيقًا بحريًا - وهذا يعنى القول، ساحة قتال. إن مضيق بوسفور واحدا كان كافيًا حتى الآن لجلب ما يكفى من الإزعاج للعالم. لقد خلقت واحداً آخر، أكثر أهمية للغاية من الأول ، وذلك لأنه لا يربط بين جزئين من بحر داخلى. إنه يخدم كممر للاتصال بين جميع البحار العظمى فى العالم. وفى حالة نشوب حرب بحرية، ستكون القناة مركز الاهتمام الأكبر، ستكون هدفًا للاحتلال تهرع إليه المعمورة بأكملها. ومن ثم فإنك حددت بدقة موضع المعارك العظمى فى المستقبل".

وجاءت أول إشارة لساحة المعركة هذه عام ١٨٧٦ عندما شهدت مصر انتفاضة ضد الأجانب. وقصدت إنجلترا وفرنسا، اللتين كانتا راعيتين لمصر فى إطار تحالف

اقتصادى، إيقاف الانتفاضة، وقتل كثير من الأوروبيين فى الانتفاضة ، وبسرعة أرسلت إنجلترا أسطولها الذى قصف الإسكندرية بالنيران، ويجب ألا يتعرض الطريق إلى الهند للتهديد، وفرنسا- على عكس إنجلترا- أمرت قواتها بالبقاء فى الوطن. وبالطبع كانت الخطوة التالية بالنسبة إلى إنجلترا هى أن تتحرك إلى داخل مصر وتؤسس محمية عسكرية.

واعترض ديليسبس على ذلك فوراً، باسم شركته، ولكن انجلترا بقيت وعلى عشاء فى الأكاديمية الفرنسية، حيث كان يقدم فيه فرديناند ديليسبس للأكاديمية ، لخص السيد رينان أسباب اختيار ديليسبس عضواً ، فقال: " لقد تسببت فى تفتح زهرة أخرى كانت تبدو ذابلة إلى الأبد، لقد قدمت لنا فى عالمنا المتشكك هذا ، دليلاً ساطعاً على فعالية الثقة ، ورسخت فى وعيهم الليبرالى تلك المقولة الشامخة " أقول لكن إذا كان لديكم إيمان قدر بذرة خردل، ستقولون لهذا الجبل تحرك من هنا، وسوف يتحرك" . إن إخلاص فريقك كان هائلاً ... كل رجالك آمنوا بأن عيون العالم كانت مركزة عليهم، وأن كل واحد كان مهتماً بأدائهم لواجبهم.

لكل هذا يا سيدى ، فإننا باختيارك متلهفون إلى مكافأتك. نحن عاجزون عن تقدير عمل المهندس، ومزايا الممول، والمدير، والدبلوماسى، وليس لنا أن نناقشها، ولكننا ذهلنا بالعظمة المعنوية للأداء، وبهذا الإحياء للإيمان ليس الإيمان بأى مذهب معين، ولكن الإيمان بالطبيعة البشرية وغاياتها المشرقة... إن تألقك يكمن فى قيادتك لهذه الحركة الأخيرة للحماسة، وهذا الإبداء الواضح للتضحية بالذات، لقد جددت فى عصرنا معجزة العصور القديمة. إنك تمتلك فى داخلك ، بأعلى درجة ، سر العظمة بأكملها ، والمهارة فى جعل نفسك محبوباً".

وعلى مدى قرن تقريباً ظل تمثال فرديناند ديليسبس.[٤٣] ، يحرس القناة التى عمل من أجلها .

وفى عام ١٩٥٦ ، عندما أصبحت قناة السويس ساحة للقتال مرة أخرى كما تنبأ بذلك السيد رينان، هدم التمثال.

ومنذ ذلك الوقت كان ينبغى أن تخدم القناة العالم حتى بدون صورة منقوشة للرجل الفذ الذى أنشأها . بيد أن الغاية العظيمة التى بنيت من أجلها، وهى توحيد دول العالم من خلال تجارة سلمية، لن تنسى أبداً . فلا تزال السويس تخص العالم. فلأى أسباب أخرى كانت ستبنى القناة ؟.

الهوامش

١- ديليسبس اسم مكون من مقطعين. وقد ظهر فى بعض الكتب التاريخية العربية مقطعًا واحدًا "ديلسبس" حينًا، ومقطعين حينًا آخر.

ولكن الكتابة الصحيحة له يجب أن تكون من مقطعين لأنه يكتب فى المراجع الأجنبية De Lesepes ، هذا فضلاً عن أن حصول ديليسبس على لقب شرفى يحتم كتابة اسمه فى مقطعين، وقد حصل ثلاثة من عائلة ديليسبس على ألقاب شرفية من فرنسا.

٢- نابليون بونابرت ١٧٦٩ - ١٨٢١ عسكرى فرنسى شارك فى أحداث الثورة الفرنسية، وأصبح قنصلاً لفرنسا عام ١٧٩٩، فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر، ثم أعلن نفسه إمبراطورًا لفرنسا عام ١٨٠٤ . وتحالفت ضده العروش الأوربية وانتهت بهزيمته عام ١٨١٥، ونفيه إلى جزيرة سانت هيلانه حيث توفى هناك.

٣- نلسون ١٧٥٨ - ١٨٠٥ بطل البحرية الإنجليزية أثناء حروب الثورة الفرنسية. حطم الأسطول الفرنسى فى معركة أبى قير البحرية فى فترة الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١، وكان أكبر انتصار له هزيمة الأساطيل الفرنسية والإسبانية فى ترافلجر (الطرف الأغر) ولكنه أصيب فى هذه الواقعة إصابة قاتلة.

٤- توحدت النمسا والمجر خلال الفترة من عام ١٨٦٧ إلى ١٩١٨

٥- تقع كورفو فى شمال غرب اليونان.

٦- مـعـركـة (Trafolger) الطرف الأغـر) نشـبـت عـام ١٨٠٥ على الشـاطىء الجنوبى الغربى من إسبانيا بين الأسطول البريطانى بقيادة نلسون والأسطولين الفرنسى والإسبانى. وانتصرت فيها بريطانيا.

٧- جاليليو جاليلى ١٥٦٤ - ١٦٤٢ عالم فلك إيطالى وعالم رياضى وطبيعى، اكتشف قانون الجاذبية الذى استقبل بعداوة لتناقضه مع مقولات أرسطو، وأنشأ أول تلسكوب فلكى وأجبر عام ١٦٣٣ على إنكار كل معتقداته وكتاباته.

٨- لويس بوربون أو لويس الثامن عشر ١٧٥٥ - ١٨٢٤ حكم فرنسا فى الفترة ما بين ١٨١٤ - ١٨٢٤ هرب سنة ١٧٩١ من الثورة الفرنسية وعمل ضد الثورة من الخارج. وبمساعدة من شارل تاليران أعيد إلى العرش عام ١٨١٤ بعد دخول الحلفاء إلى باريس، وأجبر على الفرار مرة أخرى عند عودة نابليون الأول من إلبا، ثم أعيد إلى العرش مرة أخرى بعد هزيمة نابليون فى معركة ووترلو وترسخت النزعة الرجعية فى عهده وفى عهد خلفه شارل العاشر.

٩- إلبا جزيرة صغيرة تبعد ستة أميال عن شبه الجزيرة الإيطالية حكمت لفترات متعددة من جانب بيزا وإسبانيا ونابولى، وصارت إمارة مستقلة (١٨١٤-١٨١٥) تحت حكم نابليون الأول الذى نفى إليها قبل أن يهرب ويعود إلى فرنسا. وبعد هزيمة نابليون وضعت تحت حكم تسكانيا.

١٠- سان سيمون ١٧٦٠ - ١٨٢٥ فيلسوف اشتراكى فرنسى. نادى بمجتمع يقوده العلماء ورجال الصناعة، وقد ترك كتابه "المسيحية الجديدة" (١٨٢٥) تأثيره فى الفكر الاشتراكى فيما بعد.

١١- تاليـران (١٧٥٤-١٨٣٨) رجل دولة ودبلومـاسى فـرنسى. على الرغم من عـدم إيمانه عين أسقفًا فى أوتو، ساند الثورة الفرنسية فى البداية، ولكنه هرب إلى إنجلترا عام ١٧٩١ بعد سقوط الملكية، ثم رجع إلى فرنسا عـام ١٧٩٦، وكان

وزيراً للخارجية ١٧٩٧ – ١٨٠٧، ولم يأخذ نابليون بنصائحه. وعندما هزم نابليون أقنع تاليران الحلفاء بإعادة العرش إلى آل بوربون، ومثل فرنسا فى مؤتمر فيينا ١٨١٥، ثم أصبح سفيراً لفرنسا فى إنجلترا فى عهد لويس فيليب.

١٢- شارل العاشر ١٧٥٧ – ١٨٣٦ خلف أخاه لويس الثامن على عرش فرنسا عام ١٨٢٤, وخلع عن العرش فى ثورة يوليو ١٨٣٠، وتوفى فى المنفى.

١٣- لويس فيليب ١٧٧٣ – ١٨٥٠ صار ملكًا على فرنسا من ١٨٣٠ – ١٨٤٨ ، وقد اختير ملكًا عقب ثورة يوليو ١٨٣٠، ولكنه فقد شعبيته لدى اليمين واليسار وزادت قوة معارضيه مما أدى إلى قيام ثورة فبراير ١٨٤٨، وتنازل عن العرش لحفيده، ولكن أعلنت الجمهورية فى فرنسا ، فهرب إلى إنجلترا حيث توفى هناك.

١٤- الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ – ١٨٠١

١٥- دارا Darius عرف ثلاثة من ملوك فارس القديمة بهذا الاسم وهم دارا الأول الذى توفى عام ٤٨٦ ق.م، ودارا الثانى المتوفى عام ٤٠٤ ق.م، ودارا الثالث وتوفى عام ٣٣٠ ق.م. وكانت فارس قد فقدت مصر فى عهد دارا الثانى عام ٤١٠ ق.م.

١٦- بيلوز بورسعيد حاليًا.

١٧- هو محمد سعيد بن محمد على (١٨٢٢-١٨٦٣) حكم مصر خلال الفترة ١٨٥٤-١٨٦٣، وهو الرابع من حكام أسرة محمد على بعد عباس حلمى الأول ابن طوسون بن محمد على ، وإبراهيم بن محمد على.

١٨- Lazaretto التى عربت إلى الأزاريطة. ولا يزال حى الأزاريطة معروفًا فى الإسكندرية حتى الآن.

١٩- وسام الجدارة والشرف نوط ابتدعه نابليون الأول فى فرنسا كجائزة للجدارة مدنيًا وعسكريًا ، ويمنح لمن قدموا خدمات جليلة لفرنسا فى أى من المجالين.

٢٠- أطلق مصطلح Carlist على كل مؤيد لمطالب دون كارلوس بحق أسرته فى عرش إسبانيا.

٢١- لويس نابليون ١٨٠٨ - ١٨٧٣ هو ابن لويس بونابرت ملك هولندا وحفيد نابليون الأول قام بمحاولتين انقلابيتين ضد الحكومة الفرنسية عامى ١٨٣٦. ١٨٤٠ وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ولكنه هرب إلى إنجلترا عام ١٨٤٦، ثم رجع إلى فرنسا بعد ثورة عام ١٨٤٨، حيث أصبح عضوًا فى الجمعية الوطنية، ثم انتخب رئيسًا للجمهورية الثانية أواخر عام ١٨٤٨، وإمبراطورًا للإمبراطورية الثانية باسم نابليون الثالث من ١٨٥٢، حتى ١٨٧٠، وهو الذى ساند إنشاء قناة السويس.

٢٢- الحكومة الثلاثية فى روما القديمة كانت عبارة عن مجلس للحكم من ثلاثة أشخاص وكانت الحكومة الثلاثية الأولى عام ٦٠ ق.م، وتشكلت الحكومة الثلاثية الثانية عام ٤٣ ق.م، وتم تجديدها عام ٣٧ ق.م، ويبدو أن هذا المصطلح أطلق على الحركة الوطنية التى كانت تسعى لتوحيد إيطاليا وكانت روما قد شهدت ثورة عام ١٨٤٨، حيث أبعد البابا بيوس التاسع خارج روما ولكنه عاد إليها عام ١٨٥٠، وحكم روما بمساندة قوات نابليون الثالث، ثم ضمت روما إلى إيطاليا الموحدة عام ١٨٧٠

٢٣- حاول كارل ألبرتو ملك سردينيا إخراج النمسا من شمال إيطاليا ولكنه هزم فى معركتين عامى ١١٨٤٨-١٨٤٩، وتخلى عن العرش.

٢٤- مازينى (١٨٠٥-١٨٧٢) ثورى إيطالى، وأحد أبطال الوحدة الإيطالية فى شكل جمهورى.

٢٥- عباس حلمى الأول (١٨١٣-١٨٥٤) ابن طوسون بن محمد على ، تولى الحكم عام ١٨٤٨ بعد إبراهيم الذى لم يستمر حكمه سوى سبعة أشهر عام ١٨٤٨ بعد وفاة محمد على فى العام ذاته.

٢٦- وردت فى الأصل .Zulkifer .

٢٧- سيزو ستريس اسم يونانى لثلاثة من فراعنة مصر القديمة عرف كل منهم باسم سنوسرت. وكان أولهم ابنًا لأمنمحمات الأول، وهم من ملوك الأسرة الثانية عشرة فى مصر القديمة. وقد حكم سنوسرت الأول لمدة ٤٢ سنة ابتداء من عام ١٩٦٢ ق.م. وكان مهتمًا بالتعدين فى شبه جزيرة سيناء، وتلاه ابنه أمنمحمات الثانى، ثم سنوسرت الثانى وبعده سنوسرت الثالث. وقد اختلف الباحثون حول اسم الفرعون الذى شق قناة تربط بين النيل والبحيرات المرة. ويرى البعض أنها لم توجد إلا فى عهد الفرعون نيكاو حوالى عام ٦٠٠ ق.م.

٢٨- حرب القرم ١٨٥٤ - ١٨٥٦. شنت هذه الحرب من جانب بريطانيا وفرنسا وسردينيا وتركيا ضد روسيا فى شبه جزيرة القرم ، وهى شبه جزيرة فى الشاطىء الشمالى للبحر الأسود وكان سبب هذه الحرب هو القلق من المخططات الروسية تجاه الإمبراطورية العثمانية التى وصفها القيصر الروسى نيكولاس الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) بأنها " رجل أوربا المريض". وكانت بريطانيا ترغب فى أن تشكل تركيا حاجزًا أمام التقدم الروسى فى آسيا لحماية ممتلكاتها فى الهند. أما فرنسا فكانت تتشكك فى أن تقوم روسيا بإقامة محمية لها فى فلسطين حيث يوجد مسيحيون أرثوذكس، وتذرعت فرنسا بوجود معاهدة قديمة تجعل الأماكن المقدسة فى فلسطين والقريبة من القدس متاحة أمام الحجاج من جميع المذاهب المسيحية. وهزم الروس عام ١٨٥٥، وتم إبرام معاهدة باريس ١٨٥٦، والتى جعلت البحر الأسود منطقة محايدة، مع التعهد بعدم تدخل أى قوة أجنبية فى الشئون الداخلية للإمبراطورية التركية وأن يكون المرور فى نهر الدانوب متاحًا لجميع الدول.

٢٩- أوجينى (١٨٢٦-١٩٢٠) إمبراطورة فرنسا خلال الفترة ١٨٥٢-١٨٧٠ زوجة نابليون الثالث ، امرأة نبيلة من النمسا. هربت إلى إنجلترا بعد خلع زوجها عام ١٨٧٠، ونفى إلى إنجلترا حيث عاش مع زوجته هناك.

٣٠- اللورد بالم ستون (١٧٨٤-١٨٦٥) سياسى بريطانى، كان وزيرًا للخارجية ثم أصبح رئيسًا للوزراء مرتين من ١٨٥٥-١٨٥٨ ثم ما بين ١٨٥٩-١٨٦٥

٣١- الإسكندر دوماس ١٨٢٤-١٨٩٥ المبدع الرئيسى لأحد أشكال الكوميديا فى القرن التاسع عشر، وهو ابن غير شرعى للإسكندر دوماس الأب المؤلف الفرنسى (١٨٠٢-١٨٧٠) الذى من بين مؤلفاته الرواية الشهيرة كونت دى مونت كريستو التى كتبها عام ١٨٤٥

٣٢- المسألة الشرقية Eastern Question التى شغلت الدول الأوربية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، وكانت تتعلق بمصير الإمبراطورية العثمانية ودول البلقان، حيث كانت سببًا فى انخراط بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا فى عدة حروب وقلاقل سياسية.

٣٣- الملكة فيكتوريا (١٨١٩-١٩٠١) ملكة بريطانيا وأيرلندا ما بين عامى ١٨٣٧-١٩٠١ وإمبراطورة الهند. تزوجت عام ١٨٤٠ من ابن عمها الأمير إلبرت الذى توفى عام ١٨٦١

٣٤- مترنيخ (١٧٧٣-١٨٥٩) سياسى نمساوى، أصبح وزيرًا لخارجية النمسا عام ١٨٠٩، وأقام عام ١٨١٢ تحالفًا مؤقتًا مع فرنسا. وكان مترنيخ الروح المرشدة لمؤتمر فيينا ١٨١٤-١٨١٥، والمؤتمرات الأوربية اللاحقة. وقد أطلق على الفترة من ١٨١٥-١٨٤٨ "عصر مترنيخ". وقد سعى إلى المحافظة على توازن القوى فى أوربا. وكان محافظًا ومعاديًا للحركات الثورية والوطنية.

٣٥- إسماعيل باشا (١٨٣٠-١٨٩٥) ابن إبراهيم باشا، حكم مصر واليًا ثم تلقب بالخديوى ، خلال الفترة من ١٨٦٣-١٨٧٩ بعد موت سعيد باشا، وعزل من الحكم الذى تولاه بعده الخديوى توفيق (١٨٥٢-١٨٩٢).

٣٦- كريستوفر كولومبوس (١٤٥١-١٥٠٦) مكتشف أمريكا. ولد فى جنوة بإيطاليا. وفى البرتغال أصبح رئيسًا للبحارة وقرر الوصول إلى الهند بالإبحار غربًا، وتلقى مساندة من ملكى إسبانيا فرديناند الخامس وإيزابيلا الأولى.

وفى ١٢ أكتوبر ١٤٩٢، وصلت سفنه إلى جزيرة واتلنج من مجموعة جزر البهاما، ثم وصلت فيما بعد إلى كوبا وهسبانيولا وفى ١٤٩٣ أبحر بسفنه ووصل إلى بورتريكو، وفى ١٤٩٨ اكتشف فنزويلا حيث تأكد أنه اكتشف قارة. وفى رحلته الأخيرة عام ١٥٠٢، وصل إلى أمريكا الوسطى.

٣٧- إيزابيلا الأولى (١٤٥١-١٥٠٤) ملكة إسبانيا خلال الفترة ١٤٧٤-١٥٠٤) ، وملكة أراجون من ١٤٧٩ إلى ١٥٠٤، وأسست مع زوجها فرديناند الخامس مملكة إسبانيا المتحدة. وساندت كريستوفر كولومبس فى اكتشاف العالم الجديد.

٣٨- هزم نابليون الثالث فى سيدان وأسر فى المعركة، وخلع عن العرش فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ بثورة غير دموية فى باريس، ونفى إلى إنجلترا حيث عاش بقية حياته هناك مع زوجته أوجينى.

٣٩- بنيامين دزرائيلى (١٨٠٤-١٨٨١) رجل دولة وكاتب من أصل يهودى وتحول إلى المسيحية فى عام ١٨١٧، وتبوأ مكانة فى ساحة الأدب الإنجليزى، واختير نائبًا فى البرلمان عام ١٨٣٧، وكان له نشاط حزبى بارز حتى أصبح رئيسًا للوزراء عام ١٨٦٨، ثم كانت وزارته الثانية من عام ١٨٧٤ إلى عام ١٨٨٠

وقام بشراء حصة رئيسية فى أسهم قناة السويس مما قوى مصالح بريطانيا فى البحر المتوسط.

٤٠- مضيق ماجلان يفصل بين تيرادل فيوجو وأراضى جنوب أمريكا، وكانت له أهمية ملاحية أيام السفن الشراعية. وقد اكتشف المضيق فرديناند ماجلان عام ١٨٢٠

٤١- قناة بنما : ممر مائى عبر برزخ بنما، تربط بين المحيط الأطلسى (عبر البحر الكاريبى) والمحيط الهادى. قام المهندسون الحربيون الأمريكيون بإنشائها من (١٩٠٤-١٩١٤). وطول القناة ٥١ ميلاً (٨٢كم).

٤٢- ووترلو: هى آخر حملة قام بها نابليون بونابرت بعد أن عاد من منفاه الأول عام ١٨١٥، وهزم فيها وانتهت بخلعه من الحكم فى ٢٢ يونيو ١٨١٥

٤٣- قامت شركة أسهم الخليج بصنع تمثال ديليسبس بلغت نفقات إقامته ونصبه أمام فوهة الخليج فى بورسعيد، على قاعدة متينة فى الماء ، حوالى مليونى فرنك فرنسى. واحتفلت الشركة المذكورة بإماطة اللثام عن وجه التمثال يوم ١٧ نوفمبر ١٨٩٩، أى بعد ثلاثين سنة من افتتاح القناة.

أهم المراجع

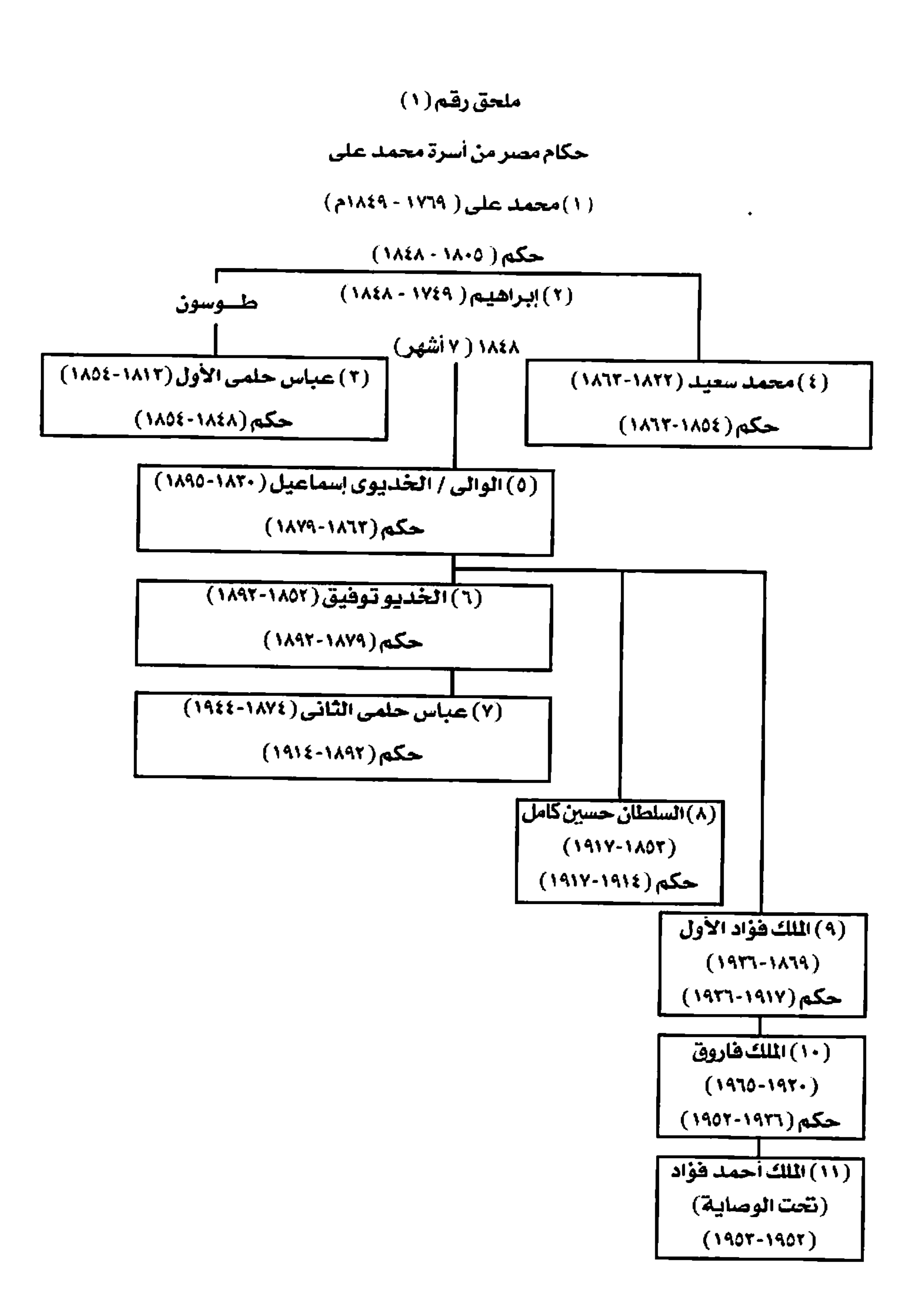
ونود الإشارة إلى أن فهرست هذا الكتاب والحواشى والهوامش فيه من ابتكار المترجم، وقد اعتمدنا فى ذلك على أهم المصادر التالية:

١- الإسماعيلية - بوابة مصر الشرقية - إعداد لجنة صياغة التاريخ - الحزب الوطنى بالإسماعيلية، الطبعة الأولى ١٩٩٠

2- The Encyclopedia Americana, International Edition, Grolier Incorporated, International Headquarters, Danbury, Connecticut, U.S.A, 1983. vols. 2, p.389p 10, pp. 455-456, p. 704, p. 794; 20, p. 510s-t.

٣- د. سمير أيوب، موسوعة الحضارة العربية القديمة، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠

والله ولى التوفيق،



ملحق رقم (١)
حكام مصر من أسرة محمد على
(١) محمد على (١٧٦٩ - ١٨٤٩م)
حكم (١٨٠٥ - ١٨٤٨)
(٢) إبراهيم (١٧٤٩ - ١٨٤٨)
١٨٤٨ (٧ أشهر)
طــوسون
(٣) عباس حلمى الأول (١٨١٢-١٨٥٤)
حكم (١٨٤٨-١٨٥٤)
(٤) محمد سعيد (١٨٢٢-١٨٦٣)
حكم (١٨٥٤-١٨٦٣)
(٥) الوالى / الخديوى إسماعيل (١٨٣٠-١٨٩٥)
حكم (١٨٦٣-١٨٧٩)
(٦) الخديو توفيق (١٨٥٢-١٨٩٢)
حكم (١٨٧٩-١٨٩٢)
(٧) عباس حلمى الثانى (١٨٧٤-١٩٤٤)
حكم (١٨٩٢-١٩١٤)
(٨) السلطان حسين كامل
(١٨٥٣-١٩١٧)
حكم (١٩١٤-١٩١٧)
(٩) الملك فؤاد الأول
(١٨٦٩-١٩٣٦)
حكم (١٩١٧-١٩٣٦)
(١٠) الملك فاروق
(١٩٢٠-١٩٦٥)
حكم (١٩٣٦-١٩٥٢)
(١١) الملك أحمد فؤاد
(تحت الوصاية)
(١٩٥٢-١٩٥٣)

المترجم فى سطور:

د. محمد فريد حجاب

المؤهل: دكتوراه فى العلوم السياسية ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة ١٩٧٦ فى الفكر السياسى والنظرية السياسية.

الخبرات السابقة: التدريس بجامعات الجزائر واليمن ونيجيريا والبحرين والإمارات، وأستاذ متفرغ بالمعهد العالى للسياحة والفنادق بمدينة ٦ أكتوبر حتى عام ٢٠٠٦

الإنتاج العلمى: نشر له العديد من البحوث والدراسات فى عدد من المجلات العلمية فى مجال الفكر السياسى والاجتماعى والدراسات الإسلامية.

كما نشر له عدد من الكتب منها:

١- الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٤

٢- رأساً برأس – اليابان وأوروبا وأمريكا، ترجمة لكتاب لستر ثرو (Head - to - Head)، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤

٣- الحضارة الإسلامية – علماء وحكماء – القاهرة ٢٠٠٥

٤- الدراسات السيكولوجية فى السياحة، مكتبة النصر، القاهرة ٢٠٠٠

٥- الأمن السياحى – مكتبة النصر ، القاهرة ٢٠٠٠

٦- السياحة والسياسة – مدخل إلى التنمية السياحية الرشيدة، ترجمة المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢

المقدم فى سطور:

حسين عيد

صدر لمقدم الكتاب أربعة و عشرون كتاباً، منها اثنى عشر كتاباً فى النقد الأدبى، و خمس روايات و مجموعتان من القصص القصيرة، و خمسة كتب فى الترجمة.

المؤلفة فى سطور

لورا لونج

ولدت السيدة لورا لونج فى كولومبوس فى إنديانا ، حيث كانت تعيش هناك عند صدور هذا الكتاب. وقد جاء أسلافها إلى أمريكا من إنجلترا وأيرلندا فى أواخر القرن السابع عشر، وأصبح بعضهم مبشرين لطائفة الأصدقاء البروتستانيين، وتخرجت من المدرسة الثانوية للبنات فى لويزفيل، والتحقت بكلية سان جوزيف فى تشستنت هل.

وبعد سنة قضتها فى جامعة إنديانا ، درست فى شيكاجو. والتحقت فيما بعد لمدة سنة بكلية الزراعة فى ميتشجان فى إيست لانسنج، ولكنها لم تحصل على مزرعة الفواكه التى استحثتها للدراسة.

تزوجت عام ١٩١٦، وكان طفلاها هم الجيل الرابع الذى يلتحق بالمدارس المحلية فى البلد التى أنشىء فيها إحدى أولى المحطات لقطارات الأنفاق أثناء الحرب الأهلية، وكانت فى وسط الجزء من إنديانا الذى مات فيه جون هنت مورجان (١٨٢٥-١٨٦٤) القائد الكونفدرالى الشهير فى الحرب الأهلية الأمريكية.

التصحيح اللغوى : ياسر مكى
الإشراف الفنى : حسن كامل